آخر سلالة عائلة البحار

الطبعة الأولى 2005
حقوق النشر والطبع محفوظة
الناشر: دائرة الثقافة والإعلام
حكومة الشارقة - دولة الإمارات العربية المتحدة
ص. ب: 5119 الشارقة
هاتف: 5671116 6 971+
براق: 5662126 6 971+
بريد إليكتروني: sdci@sdci.gov.ae

٨١٢.٠٣٩٦٢ أحمد قرني محمد شحاته
ا ق. آ آخر سلالة عائلة البحار: رواية/ أحمد قرني محمد شحاته.- الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٥
١٦٤ ص؛ ٢١سم.- جائزة الشارقة للابداع. الرواية؛ ٨- الجائزة الثانية في مجال الرواية ٢٠٠٥
١- القصص العربية - مصر أ- العنوان
ب- السلسلة

ISBN 9948 - 04 - 223 - 9
ISBN 9948 - 04 - 103 - 8

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رغم مرور كل هذه السنوات على رحيل جدي الحاج علي البحار .. إلا أن الناس في ابهيت الحجر عندما يجتمعون كل عام في مثل هذا اليوم .... فى ليلة جدي ... وحين يقف الراوي ، وسط جموع الناس من أهل البلد والبلاد المجاورة .. ويروي ما حدث .. ينصت الجميع ، ولا يتحرك أحد .. هي سيرة جدي التي لا تنتهي أبدًا .. بكل تفاصيل هذا المشهد الذي يستعصي عليّ أن أفهمه مثل كتابات إدوار الخراط التي تستعصي على التصنيف ، تتهادى إلى سمعي كلمات الراوي عن رحيل جدي .. آية من الآيات .. تتعلق قلوب الناس هنا بها .. أجلس كفيل ثمل ، أتابع ما

أراه بعينين حائرتين لا تكفان عن الدوران وهما يرصدان ما يحدث .....

وقفت هناك عند أول الطريق المؤدي إلى البلد ، بجوار كمين المرور ... أنتظر اللحاق بأول أتوبيس قادم إلى القاهرة .. ساعة واحدة تفصلني عن العاصمة .. بضجيجها وصخبها .. دفء لا أشعر به هنا في ابهيت الحجر التي تنام مبكرًا مثل كل القرى .. الزيارة السنوية التي أتحمل عبأها كل عام ، أتنفس هذا الطين وحدي .. أنا أخر سلالة عائلة البحار .. ولابد من وجودي حتى تكتمل الليلة .. كل عام وفي مثل هذا اليوم .. لا يخطأ أحد في حسابها .. الصيوان الكبير .. المقرؤون .. المنشدون .. الذبائح .. الراوي .. كأن المرحوم على البحار قد مات الآن .. لن يتم الأمر هنا إلا بحضوري .. عام .. عامان .. مرت سنوات كثيرة لا أحصيها .. لكنه أصبح قدري .. أصبحت الليلة جزءًا منى .. مثل يدي أو قدمي .. لا أستطيع أن أتحرر منها .. لم أر جدي أبدًا ولم أعرفه .. لكني أصبحت أعرف كل شيء عنه .. أصبحت أراه أمامي وأستطيع أن أصفه وأتلمس ملامحه.. أتنفس مثله بهدوء .. بدوت كشاعر نزق يمتلأ فمه بالطين ويقول قصيدة عن كائنات خرافية لا تشبهه ..صعدت إلى الأتوبيس .. لم أجد كرسيًا شاغرًا .. وقفت .. انطلق السائق بنا بعد أن خرج من حضن القرى الصغيرة المتناثرة

على جانبي الطريق .. خرج إلى الصحراء الواسعة ، التي تمتد أطرافها .. أمام الأعين بلا نهاية كلوحات دافنشي العظيمة .. أجسادنا تهتز في آلية مع دوران عجلات الأتوبيس .. قدماي – بالكاد– تحملاني من تعب اليوم .. ظللت يقظاً حتى الصباح .. لم يكن بوسعي أن أنام في ليلة جدي ، والناس يحيطون الراوي ، يجذبون الكلمات من فمه .

التعب حل بجسدي .. تململت من الوقفة .. حتى أشار أحدهم إلى السائق عند مدخل دهشور ، ونزل .. ارتميت مكانه.. بدوت كمن يقاوم ملاك النوم الطيب ، الذي هبط فاستسلمت له كطفل .... رأسي مالت كحجر بثقلها على كتف الجالس بجواري .. اندفاع السائق بالأتوبيس إلى أقصى اليسار ليتفادى صداما كاد أن يقع .. أفقت على صياح الركاب وغضب السائق الذي لعن سائقي الميكروباص الذين يسببون الكوارث على الطريق .. أدركت أننا اقتربنا .. الوقت أصبح ضيقا ولا داعي لأن أذهب إلى البيت كما كنت أخطط لذلك ، بالكاد أصل في موعد الحضور بالبنك .. ومن هناك سأتصل (بمديحة) لأخبرها أنني سأعود بعد الانصراف من البنك ، حتى لا تقلق .. البنك قريب من محطة المترو ، ومن هناك أركب المترو وسوف أكون أمام البنك قبل أن يصل المدير ..

لم يكن أحد من الموظفين قد وصل بعد ، انتظرت قليلا خارج البنك حتى لمحت عم عثمان قادما ، يحمل في يديه أكياس السكر والشاي والبن ، كانت قدمه اليسرى تعرج قليلا .. عندما رآني أسرع في مشيته .. اعتذر عن التأخر .. لكني أخبرته أنني حضرت مبكرًا .. أمسكت بالأكياس ، ووضع الرجل المفتاح في الباب .. رجوته أن يسرع في عمل القهوة ثم صحت خلفه .

- ضع القهوة في كوب وليس في فنجان .. لا تنس .

كل مرة أقول له ذلك .. والرجل لا ينسي .. لكنني لا أمل من تحذيره خوفا من أن يضعها في فنجان ، وأنا لا أحب شربها إلا في كوب .. كان عم عثمان قد سألني عن سبب قدومي إلى البنك مبكرًا .. عرف أنني كنت في البلد .

-الزيارة السنوية .....

الجميع في البنك يعرفون أنني أذهب إلى ابهيت الحجر للزيارة .. لكن لا أحد يعرف السبب ..، يعرفون أنني ربما أزور الأهل والأصحاب ... لكن لا أحد يعرف شيئًا عن ليلة جدي على البحار ، وما يحدث فيها ، وهي تقترب من ملحمة جلجاميش فقد ظهرت على يده كرامات ، أما ما حدث يوم مولده ويوم وفاته فهو الشيء العظيم الذي ستسمعه من الراوي بنفسك وتدهش له ..

أبقيت هذا الجانب من حياتي سرًا مطويًا .. مديحة الوحيدة التي عرفت .. بعد أن اصطحبتها معي مرة إلى البلد في ليلة جدي ، كان ذلك منذ سنوات .. لكنها أبدا لم تسترح لما يحدث في تلك الليلة .. ولم تشعر بود ..فركت أصابعها مرات عديدة .. ومسحت على وجهها .. كنت أتابعها وهي تبدو منزعجة .. تفزعها تحركات الراوي .. ودوران عصاته في الهواء .. في أحيان كثيرة تراجعت للخلف كدب منهزم .. عندما سألت كثيرا ، لم تجد إجابات تكفي شهيتها التي انفتحت للمعرفة .. جلست كبلهاء ، لم تستطع أن تنفض يدها من الغزل الكثيف الذي أحاط بها . . حامت حول رأسها كائنات غريبة ، هي تبدو .. فتاة بريئة كإحدى فتيات يوسف السباعي ، التي لا يهمها سوى الحب ، أهل البلد لا يرتاحون كثيرًا للأغراب .. الصمت واجه مديحة .. لم أستطع أن أفعل لها شيئا ، وأنا جالس وكل العيون تحوم حولي .. وفهم ما يدور في تلك الليلة عسير على الغرباء .. الأمر يحتاج إلى بعض الاسترخاء ودقة المتابعة ، ثم الخشوع كأنك في صلاة .. لا يمكن أن تتقبل ما يحدث إذا لم تكن مستعداً لذلك .. الأمر في أوله كان عسيرًا على .. الملل كان يتسلل إلى أطرافي الباردة.. وغربان كثيرة تنعق حول رأسي .. قالت في نفس يوم عودتنا .. إنها لم تشعر بود ولم تفهم ما يدور حولها ..

– قررت ألا أحضر تلك الليلة مرة ثانية ، الغربان كانت تحيط بى كسلعة نافقة ..

أنا لا ألوم مديحة .. لأنه من الصعب على من لم يعش في ابهيت الحجر أن يفهم ما يدور الآن .... حتى أنا كان صعبا علي أن أفهمه .. كنت أجد جفوة ، حيث كان الراوي يحكى عن سنوات العجاف في حياة جدى .. كنت أنفر ، وأتقطع من داخلي .. كنت أري الصواعق تقترب من أ طرافي ، الريف هنا لا يبدو كما يصفه محمد عبد الحليم عبد الله كان يصف قرى لا تبدو – حقيقة – لم أنفق وقتا طويلا في إدراك ذلك.. حتى بلزاك قصّر في رسم الريف الفرنسي ، وقد رأى المعاني العميقة في كل شيء ، وخاصة الأشياء التي تبدو – حسب المعروف – غير جديرة بالمعاني العميقة .. تسريحة الشعر .. ياقة القميص.. البدلة .. المهنة ... الأثاث ، الحذاء .. صرف العملة ..طريقة إلقاء التحية ..تعلمت من بلزاك أن ألاحظ هذه الأشياء .. عصا الراوي .. ملامحه ..الجلباب ... الحلوى التى يضعها الأولاد فى أيديهم .... الكراسي .. الأكواب ...كانت لذة ترتعد فى أطرافى ... ونشوه تخترق سمائها كنورس حزين يحوم حولى .. الفتاة التى عاشت فى القاهرة وسط كل هذا الضجيج ، لا يمكن أن ترتاح أبدًا لما يحدث فى إبهيت الحجر ... لم أشعر لحظة واحدة أننى غريب عن القاهرة .. تصرفت

كما لو كنت مولودا هنا ، كما لو كنت ابنها وتربيت فى شوارعها ، منذ التحاقي بالمدرسة الثانوية العسكرية فى الهرم .. أصبحت واحدا من أهلها .. ومع مرور الزمن تلاشت ملامحى الساذجة ، التى حضرت معى .. استطعت أن أضع بينى وبين أبهيت الحجر مائة كيلو متر ، هى المسافة التى تفصل القاهرة عن إبيهت ... وهى تكفى لكى تمنحك وقتا لكى تغير من نفسك ، المهم أن تبدو طبيعيا هناك فى إبهيت الحجر أو هنا فى القاهرة .. لا يلمس هنا أو هناك .. غرابة أو تغيراً يدفعه لكى يتوقف فجأة عن مواصلة الحديث معك ويسألك فى تحد .

– هل أنت من هنا ؟!!

لا يكفى أن تقضى سنوات من عمرك ضالاً ، المهم كيف تعيش ، تفاصيل صغيرة هى التى تفضح الغرباء هنا .. أصعب شيء هو اللهجة .. القاهريون لا يمطون الكلمات مثلنا فى إبيهت الحجر ..... حين نمط الكلمات وهى تخرج من أفواهنا ، لا يفعل ذلك القاهريون ... لم تشعر مديحة أننى غريب عن القاهرة ، ولم أفعل أمامها ما يثير شهيتها للحديث معى عن إبهيت الحجر ... كانت تعرف أننى لست من أبناء هذه المدينة.. حين اقتربت منها ، وعرفت والدها ، كان حماسيا مثل فتحى رضوان فى مسرحياته التى تمتلأ بالوعظ .. كانت ملامحه تشي بتاريخ من الثراء ، غير بعيد ،

حين تتجاوز قشرة الوجه الخارجية ، التى تبدو فيها الأنف أهم ما يميز الوجه ، أنف مثل أنوف البشوات القدامي .. أنف مترفع ، لم أر مثله فى إبهيت الحجر .. هو الذي منحني فرصة العمل في البنك محاسبا ، ولم يكن مخططا لي من والدي المرحوم جلال البحار الذي كان مفتشا بإدارة ري شرق التابع لمديرية الري هناك .. كان يعدني لأكون ضابطًا بالجيش، ولا أعرف لماذا اختار لي هذه الوظيفة ، هل لأنه وجدنى فارع الطول .. أسمر .. قوى البنية ، أم لأنها رغبة أمي التي أسرّت لأبي بها .. رغبة أمي لأنها كانت تريد أن تراني ضابطًا في الجيش مثل جدها ، وكانت هى التي تدفع والدي إلى أن يرسلني إلى القاهرة ..

امتلأ البنك بالموظفين .. جلس كل على مكتبه .. فتح البنك أبوابه لاستقبال العملاء والزحام الذي نراه كل يوم ... النقود التي تخرج ، والنقود التي تودع .. الدولاب المحاسبي اليومي .. الأوراق تنتقل من يد إلى يد ، ومن مكتب إلى مكتب .. تزداد ثقلا بالتأشيرات .. خانات الأرقام الممتلئة .... ثم يمهرها المدير بتوقيعه فتصبح جاهزة للصرف..الأمور تبدو عادية جدا مثل كل يوم .. لا جديد ، حتى صراخ العملاء الدائم بعد لمد النقود لإرجاع التالف منها أو عند توهم أنها ناقصة .. كل هذا معتاد ويحدث كل يوم .. كوب القهوة الثاني الذي وضعه عم عثمان

أمامي زادني يقظة .. وألهب حماسى للعمل رغم هذا التعب الذي يرقد فوقه كتفى منذ ليلة أمس .. نحن هنا في البنك لا نجد وقتا للفراغ أو لالتقاط الأنفاس مثل الموظفين في المصالح الحكومية الأخرى فلا وقت حتى لتصفح الجريدة أو لتبادل الحديث عن المشاكل الخاصة بالزوجات.. مثلا وهو أقصى ما يمكن أن يحدث بين موظفي البنك .. أن تتقابل أعيننا للحظة على أمر ما يقع فتصوب الأنظار كلها إليه .. تنظر إلى بعضنا ساعتها وينقسم وتعود الرؤوس إلى الأوراق سريعًا .. هي ابتسامة غير مفهومة تستغرق لحظة وتتصرف إلى الأوراق وحساب الأرقام .. الأرقام لا ترحم والخطأ الواحد يكلف أحدنا الكثير .... وما حدث مع زميلنا حمدي العام الماضي ما زال أمام أعيننا نراه .. بسبب خطأ يسير في وضع صفر زائد ، وإذا أخطأت فلن يشفع لك إخلاصك الدائم في العمل وتفانيك وجديتك في الحضور والانصراف .. ولكن سوف تعاقب وسوف يخصم من راتبك وما سببته من خسارة للبنك.

لذلك فالأمر يحتاج إلى مزيد من الدقة والمراجعة وأن نفتح عيوننا على آخرها ونحن أمام المستندات .. أهم شيء هو الدقة في الأرقام .. الأرقام التي بين المربعات .. كان حارس الأمن يقف فوق رأسي

– هذه السيدة التي تقف هناك .. تريدك يا أستاذ شحاته

تابعت بنظري إلى حيث يشير الحارس وجدتها تنظر إلي بلطف .. لم أفهم ، أنا لا أعرفها من قبل .. أحست فارتفع صوتها مؤكدة .

– يا أستاذ شحاته أنا أريدك

اخترقتُ نظرات الموظفين وأنا سائر إليها كانت النظرات المتطفلة تحاصرني ، العيون نهمة إلى معرفة تفاصيل اللقاء .. لكني لا أعرفها قطعًا لا أعرفها .. كلما اقتربت تزداد العيون تحديقا .. مدت يدها ، مددت يدي أحسست بلسعة برودة تغزو جسدي ، ترددت في أن أتكلم أولا .. كانت جميلة وثرية هكذا بدا شكلها لا تحتاج إلى فطنة لكي تدرك ذلك .. بقية جسدها كان عريانا مما زاد ارتباكي وتضاعفت النظرات ، أصبحت مضطرا أن أتكلم أولا لأنهي هذه المقابلة فقد تأكد لي أن في الأمر خطأ ولابد من أن أوضحه حالاً .. نعم هذه المرأة أخطأت حين أشارت للحارس باتجاهي .. أنا على ما يبدو لا أعرفها ولم أرها أبدًا في حياتي ... ازداد الموقف قلقا حين أخرجت علبة سجائرها ووضعت سيجارة في فمها واليد الأخرى أمسكت بالولاعة .. أشعلتها وأخذت نفسا عميقا ثم بدت

كمن يلهو حين نفقته في وجهي دفعة واحدة .. أغمضت عيني في حركة لا إرادية حين أحاطت بي سحابة الدخان بدت معتذرة ..

– أنا آسفة يا أستاذ شحاته .. تفضل ..

مدت يدها باتجاهي وهي ممسكة بعلبة السجائر المفتوحة .. اعتذرت لها وعندما ألحت سحبت واحدة بطرف أصبعي وضعتها بين شفتي .. أطبقت على ولاعتها الثمينة وضغطت على زر الإشعال .. انطلقت النار أمام وجهي .. سحبت نفسا ، العيون ما زالت تترقب .. والعملاء يتحركون حولنا .. الدقائق متثاقلة لا تمر .. قلت سوف أنهي الحديث . وأصحح الخطأ .. ولابد أنها ستدرك ما حدث من لبس ، وتعتذر عنه بلباقة .

– هل تريديني أنا بالضبط يا مدام ؟!

أطلقت ضحكة رنانة طارت معها كل الطيور النائمة ... العملاء ... الموظفون .. الحراس .. نظرت حولي كمن يحاول أن يتجمع قواه .

– انظر إليّ جيدًا ... سوف تعرفني .. ألست أنت شحاته جلال البحار من عائلة البحار من سلالة الحاج علي البحار ؟!!!!

تبدو جريئة كنساء إحسان عبد القدوس .. ياه كيف ألقت بي في بحيرة من الأمواج الخانقة ...؟ ما علاقة المرأة بابهيت

الحجر وعائلتي ، إنها تعرفني حتما .. أما أنا فلا أعرفها .. تركتني في خجل أمسح بنظراتي ملامحها .. تأكد لي أنني لم أرها من قبل .. ملامحها حتما لا تشبه بنات ابهيت .. الأنف المستقيم الصغير الذي يربض في رقة على شفتين ممتلئتين بأنوثة ، وعينان زرقاوان في صفاء السماء الرائقة .. قلت ربما الإرهاق طوال اليوم والسفر بالأتوبيس هما السبب وراء ضعف ذاكرتي الآن ، وعدم قدرتي على استدعاء الأشياء فى وقتها.. عرفت المرأة ما ألم لي من حيرة .. أطلقت ضحكتها .. مرة ثانية ، فأزاحت عن وجهها خجلا رقيقا كان قد تناثر كثلج أبيض .. فتحت شنطتها البنية الملفوفة بحزام أزرق مزركش بنمنمات عربية .. وقعت على الأرض علبه سجائرها. التقطها أحد العملاء وقدمها إليها بابتسامة باهتة.. لم يعرني أي اهتمام .. شكرت العميل على ذوقه ومدت يدها داخل الشنطة تعبث بها.

– خذ .. الكارت ضعه في جيبك الآن، واتصل بي .. لا تنس أن تتصل بي

استسلمت لما أمرت به ، وضعت الكارت في جيبي .. انسحبت من أمامي ، العيون البلهاء ما زالت تتابع الموقف ، وهم يقدمون لي ابتسامات باردة .. ابتسامات منتزعة من شجرة سنط عجوز .. ياه ماذا سيقول هؤلاء الملاعين .. ؟ !! وماذا تتصور

عقـولهم .. ؟ ! لـن يـصدقونى إن قلـت لهـم أنـني لا أعـرف هـذه المرأة .. لن يسكتوا سيجعلون من هذا المشهد الذي رأوه .. مشهدا مسرحيا ساقطاً لاستهلاك وقت العمل الغبي ، المزدحم بالأوراق والتوقيعات والمستندات ، الأمر يبدو طبيعيا ، لكنني أعرف ما يدور بعقولهم الآن .. كانت السيجارة ما زالت مشتعلة بين أصابعي .. أطبقت عليها في الطفاية .. وزعقت في طلب عم عثمان وفي ضيق .

- أين القهوة يا عم عثمان.. ؟ ! ألم أطلب قهوة منك ؟ !!
- لقد أحضرتها فلم أجدك جالسا على مكتبك يا أستاذ شحاته ، كنت واقفا هناك
- اذهب وأحضر غيرها حالا ، لا تنس ضعها في كوب لا أريدها في فنجان .

حتى أنت يا عم عثمان تلمح في حديثك بوقوفي مع المرأة ..في الثالثة أغلق البنك أبوابه في وجه العملاء .. ولم يبق أمامنا سوى ساعة فقط لننجز فيها تقفيل ميزانية اليوم ، ساعتها يسمح لنا بالانصراف ، كان اليوم طويلا وشاقا ومرهقا ، بدأته هناك في ا بهيت الحجر ، وانتهى بي هنا ... إذا كنت مرهقا لهذا الحد فلا داعي لأخذ المترو في طريق عودتي ، سوف أخذ تاكسي ، وأدع السائق يصل بى حتى باب العمارة ، ولا يبقى أمامي سوى السلم ،

بعد خمس طوابق سوف أقفزها قفزة واحدة كوثبة قط ، حتى أجد نفسي مستلقيا على السرير لن ألتفت إلى نداء مديحة لي ، هي تطلبني للغداء ، وأنها وضعته على المائدة ، وأنه من الصنف الذي أحبه .

-..صينية البطاطس باللحمة في الفرن ..

لن أدعها تحاول معي .. لا حاجة بي إلى الطعام .. حاجتي إلى النوم أكثر .. سأنبه عليها ألا توقظني .. تتركني نائما .. سوف أغلق الباب من الداخل ، واضع مخدة حول أذني ، وأنام طويلا .. لن أترك شيئا يشغلني عن النوم.. أوقفت التاكسي أمام الموظفين الذين خرجوا توًا من البنك ، عيونهم تحدق في وأنا أمتطي التاكسى ، العادة أن نخرج سويا .. إلى محطة المترو ، حيث يذهب كل منا إلى اتجاهه ، كان دائما فتحي أبو شنب الذي يكمل معي ، كلانا نسكن نفس الشارع ، شارع الشيخ محمد عبده .. كان ذلك منذ أعوام مرت وانقطعت علاقتي به داخل السجن ، تركته هناك يقضي عقوبة خمس سنوات ، كاد فتحي أبو شنب أن يوقع بي في التحقيق أمام وكيل النيابة .. تلك الأيام السوداء كيف مرت على خاطري وأنا مجهد هكذا مستلقيا على كنبة التاكسي الخلفية ؟ ... تاركا للسائق كامل الحرية في المروق من الشوارع الجانبية ، ليتخطى الزحام الشديد .. يبدو أن الرجل محترف في

عمله ، وجدت نفسي بعد دورانات عديدة أمام مسجد الإمام .. ومن هنا تصبح المسافة إلي شارع محمد عبده قصيرة جدا .. أعرف أن مديحة تجهد نفسها الآن في إعداد الطعام ، كان بودي أن أقول لها أنني لا حاجة لي للطعام ، إنني مجهد وسوف أستريح ، بل سوف أنام أولا .. دعيني أدخل حجرتي وأغلقها بإحكام .. لا أريد محادثات هاتفية ، لا أريد زيارات ، مهما كان الأمر .. لا تطرقي باب حجرة النوم .. أنا مجهد .. مجهد للغاية ، ربما تغضب مني مديحة ... لكن لا حيلة لى ، اليوم كان صعبا ولم أذق طعم الراحة قط .. لكن ما ذنب مديحة ؟!! مديحة زميلة كلية التجارة ... أحبتني بجنون جعلت للدراسة طعما.. وكلية التجارة التى دخلتها مرغما ، بعد أن فشلت فى تحقيق حلم أبى فى أن أكون ضابطا بالجيش .. لم يكن الأمر بيدى ، كان قدرا ... هكذا قال مدير المدرسة الثانوية العسكرية لأبي .. ابنك كان يتدرب فى ميدان الحواجز بالمدرسة ، أثناء القفز وقع وارتطم بالحاجز .. حدث له قطع فى الرباط .. لزم لذلك إجراء عملية .. ابنك وضعت له شريحة معدنية فى ركبته .. لا يمكن لطالب فى المدرسة العسكرية أن يستمر وفى أحد مفاصله شريحة معدنية .... وفى النهاية أشار مدير المدرسة على ابى أن ينقلني إلى مدرسة أخرى ... ونقلت .. كان أسود يوم فى حياتى .. أسود من اليوم الذى دخلت فيه السجن .. كنت كمن يحمل عارا

فوق كتفيه .. حين دخلت إلى المدرسة الجديدة .. الطلبة كانوا يحدقون فى ، ينظرون إلى هذا القادم من عالم آخر .. المصاب .. الذى نقل إلينا ... كان الجميع هنا يلقبونني بالطالب المصاب ، هذا ما قاله مدرس الفصل الأستاذ رفعت ، أو هكذا قال ، ربما لا أتذكر بالضبط .. لكننى لا أنسى ما قاله الأستاذ رفعت ، وقعت الكلمات على صدرى ، بل انغرست فى قلبى كالسكين ... لكن بعد أسابيع قليلة صارت لى صداقات بالمدرسة ، أحسست براحة لم أجدها فى المدرسة العسكرية ، تبدلت المشاعر من الاشفاق على إلى الحب .

وهناك كانت تنتظرنى مديحة .. لم يكن تعارفنا سهلا كبقية المحبين فى الجامعة ، بل تعارفنا صدمة .. بدا كأنه قدر ، مثل كل الأقدار التى أطاحت بى ونفذت ما أرادت رغما عنى .... كنت ساعتها أجلس فى كافتيريا الكلية بمفردى كطالب مستجد بالفرقة الأولى ، لم أكن قد تعرفت على زملاء .. كنت أحتسى قهوتى فى كوب .. رشفتان ووجدت عم قاسم ساعى مكتب عميد الكلية واقفا أمامي .

- اسمك شحاتة يا بنى ؟
- نعم أنا شحاتة .
- سيادة الدكتور العميد يطلبك فى مكتبه

مضيت خلف عم قاسم .. أوقفنى عند باب المكتب وقال

- انتظر لحظات حتى أستأذن

دخل الرجل وما هى إلا ثوان وأشار لى بالدخول .. حين دخلت وجدته جالسا خلف مكتبه ، يحادث أحدا فى الهاتف .. انتظرت بضع لحظات .. طالت المحادثة .. دارت عيناي فى المكتب .. حتى وقعت عليها بكل رقتها وأنوثتها تجلس فى الكرسى على يمين المكتب .. تغوص بجسدها الصغير فى الكرسي الواسع .. عيناها تحملان براءة مثل التى تركتها فى إبهيت الحجر التقت عينانا .. كان صوت وضع سماعة الهاتف منبها لى من سباتى .. تفحصنى جيدا .

- **أنت شحاتة ؟**
- **نعم يا دكتور .**
- **طالب فى الفرقة الأولى عندنا فى الكلية ؟**
- **نعم .**
- **من أين أنت ؟**
- **من إبهيت الحجر .**
- **أسألك عن محافظتك ؟**
- **الفيـــوم .**
- **اسمع أنت تربيت تربية ريفية وتعرف الأصول .. كيف تسول لك نفسك أن تكتب**

هـذه الخطابـات إلى زميلتـك مديحـة ، بهـا عبارات تخدش الحياء وألفاظ نابية ، أنا قرأتها بنفسى أنت هنا فى كلية ولست فى كازينو .. اسمع يا ولد ساكتفى بفصلك أسبوعا ، أسبوعا واحدا وبعدها يجب أن تعود إلى رشدك وإلا سوف أفصلك نهائيا من الكلية .

- لكن يا سيادة العميد .

قاطعنى بحـدة .

- هـذا أقـل جـزاء علـى فعلتـك تفـضل مـع السلامة ..

خرجت من مكتب العميد والدنيا تدور بى يمينا ويسارا لا أعرف اتجاه سلم النزول ، كدت أقع على الأرض ؟! وأنا أسير بخطوات عجوز متعثرة .. ماذا يقول هذا الرجل أنا لم أكتب خطابات لأية بنت فى الكلية ...

ماذا لو عرف الأهل فى البلد بما حدث لى .. شحاتة من عائلة البحار من سلالة الحاج على البحار يفعل هذا .. سوف يطردونني بلا رحمة .. ياه هذه الفتاة البريئة التى كانت تجلس على يمين العميد هى التى ترمينى بهذا كيف لهاتين العينين الرائقتين الصافيتين صفاء السماء الزرقاء .. صفاء الماء الطهور ..

النقية مثل الأرض الخضراء تشم منها رائحة النبات الذى يشق الأرض لتوه بكرا .. كيف تلصق بى هذه التهمة ؟!! ولماذا ؟!! أنا الذى يتملكنى الخجل ككل الريفيين .. يتملكنا الصمت حين نرى فتاة جميلة أمامنا .. السائق انطفأ وميض حماسه أمام إشارات المرور العنيدة التى لا ترحم قال بصوت ناقم ..

- الإشارات الملعونة لا تكف عن إزلالنا أمامها .. نقف بالساعات نتظرها حتى تفتح .. وكأننا فى طابور السجن ننتظر الجرايه..

ضحكت من قلبى على ما قاله السائق المتململ من الوقوف .. وقلت فى نفسى ، أن لحظات السجن أطول وأشق .. وعذابه أمر .. وكم تعبت مديحة وأنا فى السجن، كان لا يرهقها حمل الطعام إلى ، وانتظار الساعات الطويلة حتى يسمح لها بالدخول .. كم مرة قلت لها لا تتعبي نفسك فى الحضور إلى هنا .. سوف آكل أى شيء ، لا ضرورة لهذا ، المرء فى السجن لأيهنأ بطعام أو شراب .. لكنها كانت تصر علىالحضور كل يوم، أيام التحقيق الأولى طويلة وشاقه، كنت وفتحى أبو شنب دائمين العراك ، لا نكف عن الرغيق كان يسبنى كثيرا بأفظع الشتائم ، جحيم فتح أبو شنب أشد من السحن نفسه ، كان عصبيا وثائرا ..

ناقما على كل شيء ، ولم يعبأ بهدوئى .. قال لى ذات مرة بعد أن انتهيا من العراك اليومى .

– صهرك المحترم لن يتركك .. سوف يجرى اتصالاته لكى يخرجك من هنا سريعا ، أما أنا فلن يطل فى وجهى أحد أبدا، سوف يتركوننى حتى أصبح نتنة ، لا يريدان يقترب منها أحد .

فتحى يكره نفسه ، أكثر مما كان يكره الآخرين ، لذا كان يقسو على نفسه ويضربها ، ولايدعها تهنأ بنوم أو راحة .. كان يوقظنى فى منتصف الليل لكى يسمعنى وأبلا من الشتائم ، ثم يتكوم فى ركن الغرفة المظلم هناك بعيدا عن الضوء المتسرب من شباك صغير بأعلى الجدار الأيمن للحجرة.. كم مرة أفقت على بكائه ... كنت أضمه إلى صدرى .. كان فتحى أبو شنب غريب الأطوار .. متقلب المزاج ، مرة يبدء كوحش عملاق ومرة يصبح طفلا وديعا تغرورق عنياه بدموع مذنبة كالن يمتلك ادوات عديدة لقتلى ، هكذا كان يبدو لى دائما كمشهد افعى تحتضر .. حين نقل إلى فرع البنك هنا ، لم يكن يصاحب أحدا ، ظل هكذا لمدة عام ، ثم بدأ يتودد إلى ، بدأنا نسير معا ذهابا وإيابا إلى البنك ، كان هو أمين الخزينة بالفرع .. المسئول عن النقود .. بدأ كرجل رقيق طيب .. أحببته

حقا ، أحببت فتحى أبو شنب ، أقترب منى وعرف تفاصيل كثيرة عن حياتي .. عرف دور صهرى مرسي بك أمين فى تعيينى بالبنك ... صارحته بذلك ، الرجل منذ أن قد متنى إليه ابنته مديحة دخلت قلبه، انشرح صدره لى ، الرجل كان يحب ابنته حبا لا يوصف ، مديحة بالنسبة له كل شيء، حين عرف أصلى الريفى وأننى من عائلة محترمة اقترب منى أكثر، أصبح يستقبلني فى بيته ، يدعنى أتصرف على راحتى بالبيت ، عندما روت له مديحة كيف تعارفنا .. ظل يضحك حتى الصباح ، بينما كنت أتعجب من صنعه ، فلم يكن فى الأمر ما يضحك ، على الأقل بالنسبة لى ، كانت أزمة شديدة يوم أن طردنى العميد من مكتبه وألقى أوراقا فى وجهى ، سماها خطابات ، زعم أننى أرسلتها لمديحة ... وحين عرفت من مرسي أمين أنه هو الذى أتصل بالعميد ، فقد كان صديقا له ، وهو الذى حرضه ضدي ، عرفت ساعتها سبب ضحكه ، كدت أن أقع أنا الآخر من الضحك ... كل مرة كنت أصف له مشهدى وأنا واقف أمام العميد وهو يزمجرفى وجهى.. كنا نتعانق سويا من كثرة الضحك .. على ما فعله معى عن غير قصد .. نعم كان الأمر كله عن غير قصد ... هذا ما عرفته من مديحة بعد ذلك منذ فوجئت بعد فصلى من الكلية بيومين بطرقات على باب حجرتى .. فتحت فإذا (بمديحة) نعم كانت مديحة مرسي أمين بذاتها وقد طوت شعرها

على هيئة ذيل حصان هذا الشعر الذى كان ينسال على كتفيها عندما شاهدتها أول مرة فى مكتب العميد وضعت على عينيها نظارةشمسية سمراء أول شيء قالته حين فتحت الباب لها .

- أنا آسفة ..

كان كل شيء قد تلاشي من أمامى .

- تفضلى .
- شكرا ..أنا جئت لاعتذر لك .. المسألة حدث بها سؤ تفاهم .. لم نكن نقصدك .. عرفنا الفاعل الحقيقى ، كان أسمه نفس اسمك .. العميد أخذ معه إجراء صارم ، وأنا جئت لاعتذر لك ، وأطلب منك أن تحضر إلى الكلية من الغد ، كما قال العميد لى .

كنت كمن خرج لتوه من بئر سحيق مظلم .. أنا حفيد عائلة البحار ، لا يمكن أن أفعل هذا أبدا .. وجدى على البحار ، رجل المقام الرفيع فى إبهيت الحجر ،يعرفه القاصي والداني ، رجل له دعوة مستجابة .. وكلمته نافذة ، لا يرد له أحد طلبا ، كراماته معروف فى البلد كلها والبلاد المجاورة ... ومن هناك يأتون إليه ينتظرون بالساعات ، وفى بعض الأحيان باليوم وباليومين ، الرجل يربط دابته فى مرقد الدواب ، ويجلس فى المندرة البحرية ..

حتى يخرج عليه الحاج على البحار من خلوته حجرته التى لا يقترب منها أحد من أهل البيت ولا حتى عم فضل خادمه المخلص إلا إذا إذن له الحاج على بذلك .. الناس يعرفون بركته .. وكما سمعت من الراوي .. كان الحاج على يسير فى نهار صيف يوليه وكانت الغمامة تظله من حرارة الشمس وقد رآها الناس فى البلد رأى العين . .

الحاج على كما قال الراوى لا يدعو لأحد بخير إلا استجيب لدعائه ، الناس يسمعون أنينه ونشيجه طوال الليل حتى الصباح ، اللصوص يهابون الاقتراب من البلد بفضل كراماته ، لما مات الحاج على البحار دخل اللصوص البلد وقطاع الطرق ، الناس يفرحون يقدومي إليهم فى أبيهت الحجر فى ليلة الحاج على البحار ويستبشرون برؤيتى فأنا آخر سلالة عائلة البحار وإلى الآن لم أنجب ، ليس لى ولد من مديحة ، مديحة ذهبت إلى كل الأطباء ، ليس هناك سبب لعدم الإنجاب ، لكن مديحة لا تنجب .

عندما كنت فى البلد لإحياء ليلة جدى صارحنى العمدة وشيخ الجامع بضيقهما من ذلك .. العمدة أقترب منى على استحياء وهمس فى أذنى .

- ماذا فعلت فى مسألة الإنجاب .. يا أستاذ شحاتة ؟!

- الله يفعل ما يريد يا حضرة العمدة

هنا أنطلق لسان شيخ الجامع فى وجهى .

- يا ولدى ، من سيحيى ليلة الحاج على البحار من بعدك ، يجب أن يكون لك ولد حتى يحمل اسم عائلة البحار على كتفيه ويحيى ليلتكم ..

لا أعرف لماذا كان كلام شيخ الجامع ثقيلا على قلبي، ألقاني فى فراغ أبدى ، ماذا تفعل مديحة لكى تنجب ؟! ... فعلت كل شيء ، لكن الأمر ليس بيدها .. كانت تتحمل غضبي بسبب هذا الموضوع ، كانت تعرف سر أصرارى على الولد ، كانت تعرف أن البلد كلها هناك فى إبهيت الحجر تنتظر هذا الجنين الذى سيحيي ليلة الحاج على البحار من بعدى وإلا فلن يكون لجدى ذكرى من بعدى .. البلد كلها ستكون عرضه للنهب والسلب .. ولن يكون هناك أمان لأحد .

إذا ترك الناس فى ابهيت الحجر إحياء هذه الليلة فلن تكون لنا قيمة بين القرى المجاورة هذا ما قاله إمام الجامع الشيخ سيد ياسين ، مديحة تعرف كل ذلك ولكن ماذا تفعل ...؟! ! وهى لم تقصر فى شيء أبدا ، كنت أريده لكى يصبح ضابطا فى الجيش ، كما كانت تريد أمى لى .. أوقفه أمام قبرها، وهو يرتدى السترة

العسكرية ..هناك تهنأ فى قبرها ولا تحزن .. ولا تغضب منى كما كانت تغضب منى ، حين كنت لا أسمع كلامها ، وأذهب لكى ألعب مع الصبية خارج البيت ، كانت تنهرنى وتقول لى .. إننى من عائلة البحار ومن سلالة نقية ولا يجب أن ألعب هكذا مع عيال البلد .. لذلك أصرت عند والدى لكى يرسلنى إلى القاهرة بعد أن رأت إصرارى على الإختلاط بالأولاد فى إبهيت الحجر .. الحقيقة أننى كنت أضيق بالسور الذى وضعته أمى حولى لم استطع أن أتمرد عليها أبدا، وأتعجب من موقفها من احترام عائلتنا وتقديسها الزائد لها ، رغم أننى عرفت بعد ذلك بسنوات من الراوى .. أن جدى على البحار كان يعارض زواج أبى من هذه السيدة ووقف طويلا فى وجه أبى ونهره .. وقال له جدى .. إننا لا نزوج أولادنا من بنات لهن أصول فى المدينة ، جدى يكره المدينة ويعتبرها منبع الشر، كان جد أمى ضابطا كبيرا فى الجيش وكان يعيش فى المدينة، لذا رفض جدى البحار الكبير هذه المصاهرة ، وعندما أتى أبى بشجرة عائلة أملا وعرف جدى أنها نقية ومن سلالة كلها من الريف وأن جدها الضابط الكبير أصله من الريف وافق على هذه الزيجة وباركها .

هل من أجل هذا كانت أمى تصر على إرسالى إلى المدينة ؟!! وكأنها بذلك تريد أن ترى نفسها وهى تعصى أوامر جدى ،

وتقول ها أنت أصبح لك حفيد فى القاهرة ..، أعطيته النقود وهبطت أمام العمارة، قلت خمس أدوار فقط وأصبح أمام السرير ، لم يمنعنى أحد من أن ألقى جسدى المرهق المنهك على السرير.. كان صدرى يعلو ويهبط وأنا مستسلم للصعود .. طرقت الباب .. لأبد أنها هناك فى المطبخ ، لن تستمع لطرقاتى ، أخرجت المفتاح ، وضعته فى الباب .. دلفت إلى الداخل تلفت يمنا ويسارا، لم أجدها بالصالة.. قلت ربما تكون هناك فى المطبخ، دخلت حجرة النوم .. خلعت ملابس أرتديت البجامة .. لم أسمع لها صوتا كالعادة ، كانت تتمتم بأغنية أم كلثوم (القلب يعشق كل جميل) .. لم أسمعها .. مضيت إلى المطبخ ... لم اجدها .. ترى أين مديحة ؟!! لم أعتد أن أحضر من البنك ولا أجدها .. كانت دائما فى انتظارى .. منذ أن قعدت عن العمل برغبتها وقالت

- سوف أخذ آجازة بدون مرتب لا تفرغ للإنجاب ...

منذ أن قعدت عن العمل وهى مضطربة ، قلقة ، لا تستمر على حال أبدا.. شغلها الإنجاب عن كل شيء ، أصبح هدفها الأول ، لا تسمع عن طبيب هنا أو هناك إلا ذهبت إليه .. أصبحت الحياة بيننا باردة ، ليست لها طعم الحياة الأولى .. البرودة تسللت إلى شقتنا ، أصبحت الوحدة هى ملاز كل منا ... البرودة قاتلة ..

مديحة تحولت إلى كتلة من الصمت ، لم تعد مرحة مثل بداية حياتنا .....منذ أن صممت على الإنجاب وهى متقلبة المزاج ، لا تبقى على حال .. تتردد فى الكلمات قبل أن تنطقها ، كلمات كثيرة تموت على شفتيها ... احس بها تتعذب .. ترتكب حماقات كثيرة معى ، لكنى أغفر لها .. كانت مديحة مليئة بالحياة ، والمرح لا يغادرها .. تحب الدنيا والناس .. أصبحت تضيق بالجلوس فى شقتنا ، كل يوم تذهب إلى والدها ، تمضى هناك ساعات طويلة .. أنا لا ألومها أبدا على عدم الإنجاب .. فلماذا تحمل نفسها كل هذا العبأ ...؟!! كم مرة قامت من نومها فزعة منهارة تبكى ؟!! كان بكاؤها يعزبني ، يشق صدري ويحطمني .

مديحة تعرف أن الإنجاب بالنسبة لى مسألة حياة أو موت .. البلد كلها بنسائها وأطفالها وشيوخها .. العمدة .. شيخ البلد .. الشيخ سيد ياسين إمام الجامع .. كلهم ينتظرون حفيد عائلة البحار .

قالت لى بعد أن استيقظت فزعة ، انها رأتهم ينظرون جميعا إلى بطنها .. يقتربون منها.. يريدون أن يمدوا أيديهم إلى بطنها يشقونها .. ليخرجوا الولد منها بالقوة ...

مسكينة يا مديحة ، حالك تغير وتغير معه حالى .. قالت حين قدمت طلب الأجازة من عملها بالشركة ،أنها أصبحت لا تتحمل نظرات زميلاتها فى العمل ، نظرات زميلاتها فى العمل نظرات

الشفقة التى أصبحت لا تطيقها كأنها أير تنغرس فى ضلوعها .. قالت أنها ستجلس فى البيت حتى ترتاح من هذا العناء اليومى ..

لم تسمح لنفسها بالراحة أبدا ، بل تعبت وأتعبتني معها ، حولت ليلها إلى نهار ، لم تنم هالات سوداء تحيط عينيها من قلة النوم، عيناها أجمل ما فى مديحة . . عيناها الرائقتان فارقتا النوم ، لم أعد أرى فيهما هذا الفضاء الواسع الذى يسعنى ولا تلك السماء الزرقاء التى تمنحنى السكينة كنت أقف أمامها كطفل مدلل ، أصبحتا زائفتين حائرتين .. الأيام الأخيرة مرت بطيئة ثقيلة .. كنت أتحدث إليها أحاول أن أخفف عنها.. كانت كلماتى تضايقها .. لا ترغب فى الاستماع إلى ، لم أرها أبدا ضعيفة مستسلمة إلى هذا الحد .. هل هذه هى مديحة التى وقفت بجوارى فى محنتى حين أخذونى إلى السجن ..؟! كنت أراها من خلف القضبان قوية متماسكة .. كانت عيناها حين أنظر إليهما ، اغيب عن الدنيا ، فلا أرى أسوار السجن العالية .. كنت أحلق فيهما وأطير .. كلماتها شفاء لكل جروحى .. كيف بدت الآن ضعيفة إلى هذا الحد .. هل كانت تحاول أن تبدوا أمامى قوية متماسكة حتى لا أنهار وأنا فى السجن ..؟! أنا لم ألمح لها برغبتى فى الإنجاب ، ولم أعنفها لذلك أبدا ، ربما أحست بما يدور نفسى ، لما لا وهى أقرب إلى من نفسى ، ربما سمعتنى ليلا ، وأنا نائم ، أردد شيئا أو أهذى بشيء ..

هل هذا حدث ؟ ! هل سمعتنى مرة أقول شيئا وأنا نائم .؟! لذا انهارت إلى هذا الحد .. لكن ما حيلتى .. المرء لا يملك نفسه وهو نائم .. أنا أسف يا مديحة ، لو حدث ذلك وتسبب فى حزنك .. وربما لا يخفى عليها ما أنا فيه ..

هل اطلبها الآن على الهاتف عند أبيها .. أم أتركها ، بل يجب أن اشعرها بالاهتمام ، نعم سوف اطلبها ، لكى تشعر أننى لا أطيق بعادها عنى ولو ساعة واحدة ، ادرت قرص الهاتف ، جائنى صوت الحاج مرسى أمين متهللا .. عندما عرف صوتى سألنى عن نفسى وعن صحتى .. ثم سألنى عن مديحة وهل هى بخير ..؟! أسرعت بإنهاء المكالمة بعد أن أدركت أن مديحة لست عنده الان ، ترى أين ذهبت مديحة ؟!!

رأسى تدور بى من شدة التعب .. ألقيت جسدى على السرير ، إغمضت عينى للحظة .. ثم أفقت على صورتها .. كيف نسيت تلك المرآة بهذه السهولة، من شغلنى عنها ،؟! من يا ترى هذه المرآة التى حضرت إلى البنك اليوم ..؟! بالتأكيد ليس الأمر من قبيل المصادقة ، أنها حتما تعرفنى ، تعرفنى جيدا ، لقد تحدثت عن إبهيت الحجر ، أظن ذلك .. وجاءت سيرة جدى على لسانها .. نعم اتذكر – بالكاد – ما قالته ساعتها .. أنا متعب جدا ، ومرهق للغاية .. وأذكر أيضا أنها اعطتنى سيجارة من علبة

سجائرها .. ياه لقد تذكرت .. الكارت .. أين وضعت الكارت الذى أعطتنى إياه المرآة إنه فى جيب الجاكت هرعت إلى الدولاب ، أخرجته من جيب الجاكت .. ها هو .. نظرت إلى حروفه كان ، مكتوب عليه أسمها بخط كوفى (فريدة المرص).. ربما لا أعرف الاسم جيدا لكنى اتذكر أن هناك فى إبهيت الحجر عائلة بهذا الاسم ، عائلة المرص .. يبدو الاسم بعيدا.. لكنى لا أذكر أن فى تلك العائلة أمرأة بهذا الجمال ..... إبهيت الحجر لا تعرف هذا النوع من النساء ، طنين الأفكار حول رأسى صار يضايقنى .. رأسى تدور كأنها طاحونة لا تهدأ، كان النوم قد حط على جفونى .. استسلمت له .. كان صوت مديحة يتهادى إلى سمعى من الصالة .

– شحاتة ، هل حضرت ؟! ..... حبيبى أين أنت ؟ .. انا حضرت لتوى من الخارج.. ساعد لك الطعام .... لا تنم الآن .. انتظر ...

(٢)

.....

...

أبداً .. السـجن لا يصنع أبطـالاً ولا زعمـاء

النيابة العامة :

محضر تحقيق

فتح المحضر اليوم الساعة الواحدة ظهرا بسراى النيابة

نحن / فؤاد نصار وكيل النيابة

ومحمد رجب سكرتير التحقيق

اليوم وأثناء تواجدنا بسراى النيابة عرض علينا المحضر السابق ذكره إداري القسم والمحرر بمعرفة النقيب على صفوت رئيس

التحقيقات بالقسم والمؤرخ بتاريخ اليوم .. والذى ضمنه تقرير التفتيش المالى والإداري والذى يشير إلى وجود اختلاس مبالغ مالية تبلغ مائة وخمسة وعشرون ألف جنيه من فرع البنك وعليه وبمناسبة وجود المتهمين خارج غرفة التحقيق دعونا الأول منهما ويدعى / فتحى حامد أبو شنب داخل غرفة التحقيق فألفيناه رجلا فى العقد الأربعين من عمره له شارب وبشرته قمحية ويرتدى من الملابس الأفرنجية، جاكت أزرق تحته قميص أصفر اللون وبنطلون أسود مقلم وينتعل حذاء جلد أسود .. فأحطناه علما بالتهمة المنسوبة إليه وأن النيابة العامة هى التي تباشر معه التحقيق وسألناه عن التهمة المنسوبة إليه وعما إذا كان لديه مدافع يحضر معه التحقيق ، فأجاب عن الأولى بالإنكار وعن الثانية بأن معه الأستاذ/ سالم حمودة المحامى وسدد الأخير التمغة ، وشرعنا فى سؤال المتهم .

س : اسمك وسنك وعنوانك ؟

جـ : فتحى حامد أبو شنب ، أثنان وأربعون عاما ، ومقيم ٢٣ش محمد عبده .

س : ما قولك فى التهمة المنسوبة إليك .. من أنك اختلست المبالغ الواردة بتقرير التفتيش المالى والإداري ؟

جـ : لم يحدث.

س : وبما تفسر العجز الوارد بالخزينة مع أنك المسئول عنها ؟

جـ : كل الأوراق سليمة وموقعة من الموظف المختص بذلك .

س: ومن هو الموظف المختص بذلك ؟

جـ : الأستاذ / شحاتة جلال على البحار .

س : هل تتهم سالف الذكر بالاختلاس ؟

جـ : نعم

س : أنت متهم بالاشتراك مع آخر فى الاستيلاء على المال العام ؟

جـ : لم يحدث وأنا برئ .

س : هل لديك أقوال أخرى .

جـ : لا

وعليه قام المتهم بالتوقيع على أقواله وأنحينا الماثل أمامنا خارج غرفة التحقيق واستدعينا المتهم الثانى ويدعى شحاتة جلال على البحار وألفيناه رجلا فى العقد الثلاثين من عمره ، ذو بشرة سمراء ، طويل القامة ، وذو شعر أسود تتخلله شعيرات بيضاء قليلة ويرتدى من الملابس الأفرنجية ، قميصاً أبيضاً ، وبنطلون أزرق ، وينتعل حذاء بنى اللون ولا تظهر على ملابسه أو جسده آثار تفيد التحقيق وسألناه شفاهة عن التهمة المنسوبة إليه وعما إذا كان معه مدافع يحضر معه التحقيق فأجاب عن الاثنين بالنفى وعليه شرعنا فىسؤاله .

س: اسمك وسنك وعنوانك ؟!

جـ : شحاتة جلال على البحار ، اثنين وثلاثين عاما ، ومقيم ٢٧ ش محمد عبده .

س : مـــا قولـــك فـــى التهمـــة المنـــسوبة إليـــك ؟! أفهمناه .

جـ : أنا برئ .

س : أنـت مـتهم بـالاختلاس حـسبما ورد بتقريـر التفتـيش المرفـق بالأوراق ... ملحوظة أطلعنا المتهم على تقرير التفتيش

تمت الملحوظة .

جـ : أنا لم اختلس شيئا .

س : هل لديك سوابق ؟!

جـ : لا .

س: جاء بأقوال المتهم الأول أنك أنت المسئول عن التوقيع على أذونات الصرف وجميع المستندات .

ملحوظة : قمنا بفض الحرز وهو عبارة عن ظرف أصفر وعليه شمع احمر ومختوم بخاتم يقرأ النقيب على صفوت .

تمت الملحوظة

جـ : فتحى كاذب وأنا ليس لى توقيعات على هذه الأوراق .

س : بما تفسر وجود توقيعك على الأوراق ؟

جـ : هذه توقيعات مزورة .

س : هل تطعن على هذه التوقيعات بالتزوير ؟

جـ : نعم .

س : ومن الذى قام بتزوير توقيعك على المستندات حسب زعمك ؟

جـ : لا أعرف .

س : أنت متهم بالاشتراك مع المتهم الأول بالاستيلاء على المال العام المملوك للبنك ؟

جـ : أنا برىء .

س : هل لديك أقوال أخرى ؟

جـ : لا .

وعليه قام المتهم بالتوقيع أمامنا على أقواله بمحضر التحقيق.

وقررنا إجراء مواجهة بين المتهمين داخل غرفة التحقيق ، وسمحنا للمتهم الأول بالدخول إلى غرفة التحقيق وبمواجهة كل منهما بأقوال الآخر أصر كل منهما على أقواله ، وطلب الحاضر مع المتهم الأول الأستاذ/ سالم حمودة المحامى إخلاء سبيل المتهم الأول بضمان محل إقامته وضمان وظيفته أو بأى ضمان تراه النيابة العامة ، حيث أن موكله ليس مسئولاً عن المستندات المضبوطة وأنها جميعاً تحمل توقيع المتهم الثانى وأقفل المحضر فى ساعته وتاريخه عقب إثبات ما تقدم .

وعليه قررنا الأتى

أولاً : يحبس المتهمين أربعة أيام على ذمة التحقيق ويراعى التجديد لهما فى المواعيد القانونية .

ثانيا :-يطلب فيش بصمات المتهمين سالفى الذكر وصحيفة سوابقهما .

ثالثا :- تطلب تحريات مباحث الأموال العامة حول الواقعة .

رابعا :- يطلب النقيب على صفوت لسؤاله بجلسة التحقق القادمة .

خامسا :- يطلب السيد مدير البنك لسؤاله بذات الجلسة .

سادسا : ترسل الأوراق إلى الطب الشرعى قسم أبحاث التزييف والتزوير لتحديد ما إذا كان التوقيع عليها هو توقيع المتهم الثانى من عدمه .

****

ياه .... أيام سوداء لا يستطيع المرء أن يذكرها وهو ممدد على أريكته هكذا، واضعا قديمه فى مواجهة شاشة التليفزيون ، حيث لا تكف المذيعة عن وضع ابتسامة باهتة على شفتيها لإدخال البهجة على الناظرين إليها عبر الشاشة ، وهم يشاهدون مط شفتيها ببلاهة .. مثلها تماما كانت تفعل مديحة ، عندما كانت تضع ابتسامة

لا أفهمها ، ابتسامة غامضة .. تبتغى بها إدخال الطمأنينة على نفسى وأن كل شيء تمام .

العمر الذى قضيته فى السجن فى زنزانة واحدة مع فتحى أبو شنب ، ما أصعب أن يجبر على أن تجالس عدوك وأن يشاكك كل شيء ، طعامك ، شرابك ، نومك وحتى بعض الهواء الذى تتنفسه ويدخل رئتك .

أول شيء طلبته من مديحة فى زيارتها الأولى لى ، أن تحضر معها كتاب (قصص الأنبياء) لابن كثير .. كنت أعرف أن الأنبياء هم أشد الناس ابتلاء ، وأكثرهم خاض محنا حالكة السواد .. كنت أريد أن أعرف كيف يتغلبون على هذه المحن ؟ وقلت أقرأ قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، فهى أقرب القصص إلى حالى ، فقد أدخل إلى السجن ظلما مثلى تماما ، ولبث فى السجن بضع سنين ، والبضع ما بين الثلاث إلى التسع ، وقيل إلى السبع ، وقيل إلى الخمس .... وقبل مادون العشرة ..

اليوم الذى تقضيه فى السجن ظلما يساوى سنينا ، فأى ما قاله المفسرون صحيحا، كان فتحى أبو شنب رجلا متقلب المزاج ، يضحك تارة ويبكى أخرى ، لم نعد يتحدث فى قضيتنا ، لم أعد أعرف الحقيقة ، أو أملكها لا أعرف أن كان فتحى مظلوما مثلى أم هو الظالم .. فلماذا أقسو عليه أذن ...؟! الأيام تنفلت من بين

أصابعى ، تتكسر المشاعر وتتبلد الأفكار، لا نعرف للأيام عددا ولا طعم فهى متشابه فى كل شيء ... الضوء الذى يباغتك فىالصباح من قوة فى أعلى الحائط الأيمن الأسمنتي المرتفع هو كل ما يصل إليك من العالم الخارجى ، لم أذق نوما هادئا ، كان نومي متقطعا ... تتخلله الكوابيس والأفكار المؤلمة عن المصير.... أصحبت أكره النوم .

فى البداية ، كنت أتطلع إلى زيارة مديحة حتى أسألها عن الجديد فى قضيتى لكنها كانت دائما ترد بكلمات بلهاء ، كلمات لا تعبر إلا عن فضاء مثل فضاء اللوحات السريالية .. فضاء يحتمل كل التصورات والتأويلات .. قطعة من الضوء ، يحتمل أن تكون نورا وبصيص أمل ، ويحتمل أن تكون احتراقا وموت .....

كان الشاويش حسن هو أشد الناس – هنا – إحساساً بى داخل السجن .. الحراس فى السجن لا يهمهم إلا الضبط والربط و النظام .. لا يهم إن كنت مظلوما أو ظالما ، لا يهم أن كنت جانيا أو مجنياً عليه ، كل من يرتدى البدلة الزرقاء سواسية ، الكل يخضع لقانون ، هو قانون السجن ... الوحيد الذى كنت أرى فى وجهه حزنا علىّ هو الشاويش حسن .. لكنه كان يقول لى دائما عندما يرانى مكتئبا .

– يا أستاذ شحاتة ، أنت أحين من غيرك .. أصبر .

لم أكن أفهم كلام الشاويش ... كنت أقول .. وهل بعد هذه الأسوار دنيا أسوأ ... حتى استيقظت فى أحد المساءات .. على أصوات عالية ، وضجيج غير معتاد ، فى مساء السجن ، أنت لاتسمع سوى أصوات الكلاب التى تبيح طوال الليل ، أو زعيق نوبات الحراسة .. أما اليوم فكان الأمر مختلفا ، الضجيج يملأ المكان وفجأة فتح الحراس الزنزانة وإذ بدفعة من المساجين .. دفعة من المستجدين .. لكن العدد كان أكبر من أن تستوعبه زنزانتي الصغيرة ، بالكاد كل منا وجد موضع قدميه حتى الصباح .. الأولاد الذين حضروا كانوا مرجوفين ، مرعديين ، لاذوا بالصمت طوال الليل ، كانت أجسادهم ملطخة بالدماء ، وأنينهم لا يكف ، ظل متواصلا طوال الليل .. بالكاد عرفت الحقيقة، عرفت أن السادات فعلها فى آخر أيامه ، واعتقل عددا كبيراً .. فى الصباح جاء العسكر وجروا الأولاد من الزنزانة إلى الخارج وقالوا لهم ..

- إلى التحقيق ...

كانت خدعة ، لم يكن هناك تحقيق .. فقط سمعنا صراخ المعتقلين وأنينهم ، وعند وجبة الغذاء لم يسمح لنا بالذهاب إلى ميس السجن ، بل أحضر لنا الشاويش حسن الجراية إلى الزنزانة ، وبعد عدة أيام .. إنتظم حال السجن وأصبح أكثر صرامة من ذى قبل .. أعادوا لنا جزءا من حقوقنا .. كنا نخرج فى الفسحة ،

ونذهب إلى الكانتين وإلى الملعب ، وعندما سألت الشاويش حسن عن الأولاد المعتقلين .

– السياسيون ليس لهم فسحة ، الجنائيون فقط .

عرفت بعدها أن وضع الجنائيين داخل السجن أفضل بكثير من المعتقلين السياسيين لأن الجنائيين محبسون على ذمة قضايا ، أم المعتقلون فهم على ذمة السياسة .

كان يجاورنى فى الزنزانة أحد المعتقلين، كان شيخا مسنا ، هكذا تصورته ، فأنا لم أره ، كان أنينه لا يكف طوال الليل ... كنت أسمع صراخه فى أى وقت ، لم يكن لهؤلاء الأوغاد ميقات معلوم لممارسة هواياتهم .. الوقت كله مباح لكى يمارسوا ألعابهم القذرة .. قلت للشاويش حسن ..

– من يجاورنى فى الزنزانة ؟

أقسم الرجل علىّ بأغلظ الأيمان أن أسكت وألا أفتح على نفسى وعليه بابا من جهنم .. الأمر ليس هينا ... التعليمات صارمة قاسية .. التعليمات كما قال الشاويش حسن من فوق .

كان أنينه فى هذه الليلة متقطعاً ، لم يكن كما عهدته كان يجئ ويروح ، يعلو ويهبط .. إنتابنى القلق .. وضعت آذنى على الحائط كى ألتقط أنينه .. الذى بات أشد ضعفا ... كان يتوقف عن

الأنين لحظات طويلة .. فتحى أبو شنب يتابعني .. أسمك بيدى وقالى يحذرنى ..

- لا تتحرك ، ولا يحس بك أحد إن للحوائط هنا عيون وآذان .. نحن جنائيون حضرنا من أجل الإختلاس وليس السياسة ، لا تجر علينا وبالاً لا طاقة لنا به.

عندما لم أعد أسمعه .. طرقت الحائط إرتفعت دقات قلبى ، وأنا أتابع الأنين المكتوم .. طرقت الحائط بكفى ، لم يجب .. أنصت إلى همساته لعلى أسمعها .. حملت كوب الماء ، طرقت به الحائط ، أخذت طرقاتى تعلو وتعلو .. أمسك بى فتحى .. شل حركتى بزراعيه القويين ، منعنى من الاقتراب من الحائط ، تغلب على بقوته .. إنهرت .. لم أعد أقوى على فعل شيء بدوت كشبح متهالك .. عند الفجر لم أسمع إلى تمتماته المعتادة عند الصلاة ، تلك التمتمات الدافئة ... التى يسبقها حركة وضع الكوب فى الماء ، أصبحت أعرف عاداته كلها .. عرفت موعد نومه واستيقاظه .. اليوم تغير كل هذا الذى عرفته .. لم أشعر به ككل يوم وهو يتحرك للصلاة .. كان الحراس قد حضروا مبكرا فتحوا الباب على الرجل ، قال أحدهم بصوت خفيض ..

- مـــات .....

أنهرت مكاني .. زاغ بصرى وأحسست بفراغ برئتي ، لم أستمع لدقات قلبي، كانت كل الحوائط تقع فوقى .. أحسست أننى طائر فى الهواء .. كانت يد فتحى أبو شنب تمنعنى من السقوط .. وصراخه على الحراس فى الخارج .. أدار أحدهم مفتاح فى كالون قفل الباب على عجل ، استدعى زميله ، حملانى إلى الخارج ، هناك حيث مستشفى السجن ، حين أفقت وجدتنى أمام الطبيب الذى وضع سماعته فوق القفص الصدرى .. سمعته يقول .. النبض ضعيف أو هكذا قال .. قلت بصوت مكتوم

- أين مديحة ؟ أريد مديحة ..

وضعوا المحاليل على الحامل الذى يقف بجوار السرير ، مددا فى أوردتى الخراطيم ، إخترقت جلدى الأبر واحدة تلو الأخرى .. لم يفارقنى أنين الشيخ أبدا ، ظل ظنينا فى أذنى لا يروح .. هيئته التى تخيلته عليه .. لم أره قط ، مع هذا كانت صورته لا تفارق عقلى أبدا .

لم أعد أطيق هذا السجن أبدأ ، كرهت المدينة وأهلها ، كأنها أصبحت سجنا كبيرا .. أين قريتى وبلدتي ووطنى إبهيت الحجر ؟ ! إنهم أحن الناس على وأرقهم .. عندما حضرت مديحة .. أقسمت عليها أن تذهب إلى إبهيت الحجر وأن تزور قبر جدى على البحار ، لا أريد منك شيئا غير هذا ..

- لن أسافر حتى أطمأن عليك يا شحاتة .. أنت مريض
- أرجوك يا مديحة أذهبي إلى قبره .. الجميع هناك يعرفه سيدلونك عليه بسهولة، قولى له أن حفيدك شحاتة البحار فى ضيق ، ويريدك أن تذكره ..

استسلمت مديحة لرغبتي أخيرا بعد إلحاح ، بعد أن أكد لها الطبيب أننى أصبحت أفضل كثيرا وأن حالتى تحسنت .. لا أعرف لماذا طلبت ذلك من مديحة ، لماذا خطر على قلبي هذا الخاطر .. جدى على البحار هو صانع الكرامات ، والراوي يقول أنه صنع أشياء كثيرة للبلد ، وللناس فلماذا لا يصنع شيئا لحفيده ؟!

البلد كلها تذهب إلى ليلته ، والبلاد المجاورة تنظر هذه الليلة ، أنا أعرف أن مديحة لا تؤمن بهذه الأفكار ، مثلها مثل بقية الناس فى المدينة ، المدينة الكبيرة التى لا ترحم أحدا ، ولا تشفق على مظلوم .. حتى القاضى هنا فى المدينة لا يستمع إلى ما يقال عن الأصل والحسب والنسب ، عندما وقفت بين يدى قاضى المعارضات .. كل مرة كان يأمر بتجديد حبسي دون أن يستمع إلى مرافعة المحامى الذى أحضرته مديحة لى .. كل مرة أذهب إلى التجديد ، يقول لى الشاويش حسن ..

- إفراج إن شاء الله ..

وعندما يرانى عائدا أجر قدمى خلفى ، يعرف ما حدث .. الحكومة هنا فى المدينة لا تصدق شحاتة حفيد عائلة البحار .. ولا تصدق أنه لا يختلس .. تربيت فى حجر عائلة البحار ، ربما لا أتذكر ملامح جدى على البحار ، لا أذكر سوي لحيته البيضاء .. أما بقية ملامحه فلا أذكرها قط .. بكيت حين تذكرت ليلة جدى .. من سيحيي هذه الليلة ؟ إن بقيت فى السجن ، وماذا سيقول أهل البلد عنى ؟ .. هل سيقلون نسى وصية أبيه وجده رماها وراء ظهره باع نفسه للمدينة ؟ ! شغلته الدنيا عن مهمته وعن عائلته .. من سيقف على يد العمال وهم يعلقون الزينات ؟ من سيذكر الله ويصلى على رسوله ، ويقف وسط الليلة يستقبل الرواد والقادمين من القرى المجاورة ؟ ! .. كان العمدة يصر أن يجعلنى فى المنتصف بينه وبين شيخ البلد لنستقبل الوفود ، ثم نصعد الجبل الشرقي، حيث قبر جدى ومقامه لنقرأ هناك الفاتحة ، ثم ننزل إلى الصيوان العظيم ، المقام غرب البلد ، ننهر الذبائح بعد أن نذكر اسم الله عليها ، ثم تبسط السجاجيد أمامنا فى الممشي الطويل المؤدى إلى بيت جدى ، وهناك نجد الرايات والزينات ، وفى المساء ينشد المنشدون فى المديح ، ويقرأ المقرؤون ما تيسر من القرآن ، ثم يقوم الراوى ويحمل عصاته ليقف فى وسط جماعتنا .. حيث تشرأب الأعناق

وتحدق العيون وينصت الناس فلا نسمع همسا بين الحاضرين ، الكل حاضر .. الأولاد والصغار والكبار .. لكى يأخذوا العبر والعظات من كلام الراوي ويشبوا على حب بيت البحار .. يظل الراوي يحكى ويحكى ويهز عصاته يميناً ويساراً و، عيون المشاهدين تتحرك معها .. كان الراوي يحفظ عن جدي ما لم أحفظه ، ويعرف عنا نحن عائلة البحار ما لم أعرفه .. كنت أستمع إلىما يقول بإنصات وبشغف مثلى مثل بقية الحاضرين .. وكان الرجل ينتظر هذه الليلة من العام إلى العام ، ويعد نفسه لها جيدا ، يسحذ ذاكراته ولا يدع كبيرة أو صغيرة إلا أتى بها ، كانت مناقب جدى على البحار كثيرة بحيث يظل الحاضرون يستزيدون من الرجل إلى الصباح حتى يرفع المؤذن آذان الفجر ، الناس لا يكفون عن سؤال الراوي والاستزادة منه فى تلك الليلة وصيحاتهم تعلو حين يفرد الراوي زراعيه لأعلى ، ناظرا إلى السماء، واضعا عصاته على الأرض ، بينما عيناه تحدق فى الجالسين حوله وهو يروي أحد مناقب جدى وعلامات الكرامة التى كانت تحدث له ، عندما أعادونى إلى زنزانتي لم أجده لم أجد فتحى أبو شنب ولم أجد الشاويش حسن لأسأله أين ذهب فتحى ؟ كان مجرد ذكره يعكر صفو مزاجى .. رغم أن الوحدة قاسية إلا أن زمالة فتحى لى فى الزنزانة لم تكن مريحة بالنسبة لى .. لم أحبه أبدا منذ أن خرجنا من عند المحقق ولم أرتح إليه،

كانت سعادتى عندما لم أجده فى الزنزانة .. فى الليل يبدو السجن باردا مملا .. الوحدة والصقع والملل .. لا تجد سوى هذه الجدران التى تحيط بك .. صامتة خاملة لا تحادثها .. المساء هذه الليلة كان أكثر قسوة وددت لو أعادوا لى فتحى أبو شنب برغم غلظته وقسوته ، الوحدة تبدو أقسى وأفظع مما كنت أظنها .. ترى هل ذهبت مديحة كما طلبت منها إلى إبهيت الحجر لزيارة قبر جدى على البحار ؟ تراها تقاعست وأدركت أنه طلب من يائس .. أو غريق يتعلق بقشة نجاته .. تراها سفهت طلبى وتراجعت فى آخر لحظة وقالت .. .. ما عسي أن تجدى هذه الزيارة تحملنى سفراً وأرقا وتعبا !

ربما أحست أننى كنت أهذى فى المرض .. فلا أعرف ماذا أقول .. لكنى أعرف مديحة جيدا ، لن تتأخر عن تنفيذ ما أطلبه منها إرضاء لى ، هكذا كانت وستظل ، ولن تتغير مديحة ، لأنها تحبنى بجنون ، بكل ما تملك من مشاعر .

تسلل الضوء من الكوة العالية .. ضجيج الحراس فى الخارج .. دخل الشاويش حسن .. أشار لى بالوقوف ..

– الحمد لله على سلامتك .. هيا ستنتقل إلى زنزانة أخرى .. هذه أوامر .

– أين فتحى أبو شنب ؟

– طلبته النيابة أول أمس ولم يعد .

– وأين ستأخذونى ؟

– إلى زنزانة أخرى .. حركة تنقلات من مأمور السجن .. السياسيون ملأوا السجن.. هيا هات أغراضك معك ..

مشيت خلف الشاويش حسن فى البهو الكبير للسجن ، وعبرنا كان القلق باديا على جميع الحراس والضابط ، الأوامر تلقى فى كل إتجاه طابور طويل من السياسيين يسير فى إتجاه غير معلوم ، يبدو على الجميع الإرهاق .. أخبرنى الشاويش حسن أن هؤلاء المعتقلين المستجدين .. لم يناموا منذ يومين .. والحراس يقفون أمامهم هكذا لأنهم أضربوا عن الطعام من ليلة الأمس .. المأمور حضر ومعه كبار الضباط ، كانت كلمات المأمور تتهادى إلى سمعى وأنا أسير فى البهو الكبير.. كان يحاول خداعى بكلامه المعسول مرة وبإبراز العصا الغليظة التى يمسكها العسكر مرة أخرى .. الحمد لله أننى مسئول عن الجنائيين .. هكذا قال الشاويش حسن وأردف ..

– الله يساعد حراس السياسيين إنهم لا ينامون يواصلون الليل بالنهار ، حتى المأمور قرر ألا

يغادر السجن خوفا من بطش رؤسائه به ، إن حدث شيء يخالف الأوامر العليا إليه .

هنا الضابط تململوا ، لم يذهب أحد منهم إلى راحته .. السياسيون أشعلوا السجن وملئوه ضجيجا .. كنا نميل إلى رده صغيرة على اليمين فى آخر الممر الطويل .. حرك المفتاح .. وأدخلني .. كانت زنزانة صغيرة جدا لا تزيد عن بضعة أمتار وسقفها منخفض.. ورائحة العطن تملأها .. كان شيئاً فظيعا أن تنتقل من الزنزانة الأولى إلى مثل هذه الزنزانة .. كان يغط فى نوم عميق .. لم يشعر بحركة الباب .. كأنه لم ينم منذ سنيين قلت للشاويش حسن .

- من هذا يا شاويش ؟
- معتقل سياسي .

اندهشت وفزعت ملامحى من الاستغراب .. كأن لسعة من كرباج لمس ظهرى ، تسمرت مكانى وأنا أشاهده متكورا متكوما بجوار الحائط .

- معتقل سياسي هنا معى فى زنزانة واحدة ؟!
- لا تخف يا أستاذ شحاتة ، هذا المعتقل مريض وحالته الصحية متأخرة ، لذلك قرر المأمور

إبعاده إلى عنابر الجنائيين حتى ينعم فيها بالراحة.

- ولماذا لا يذهب إلى المستشفى ؟ !

ابتسم الرجل فى سخرية .

- السياسيون لا يذهبون إلى المستشفى ، هكذا ببساطة .

تركنى وأغلق من خلفه الباب ، جذب الباب ليتأكد من إحكام الغلق ، كان وقع صوت حذائه الميري فى الممر الطويل الواسع يتلاشى شيئا فشيئا ، الزنزانة مقبضة والرطوبة تتسرب من الحوائط الأسمنتية العالية .. نظرت إلى المكوم فى جانب الزنزانة .. لا يتحرك .. لولا أن صدره يعلو ويهبط لاعتقدت على الفور أنه فارق الحياة.. الدقائق تمر هنا بطيئة ، تسحب روحك معها .. هذه الزنزانة المظلمة التى لا يأتيها الضوء إلا من كوة صغيرة لا تزيد عن سنتيمترات .. والبرودة ما أقسى البرودة التى تتخلل نفسك، ليتك لم تأت إلى هذه المدينة الباردة القاسية ، وبقيت عمرك كله فى إبهيت الحجر .. القرية الدافئة .. كان بوسعك أن تبقى هناك لولا رغبة أبى الملحة فى إرسالى إلى القاهرة .. أخذ بريقها عينى .. والآن تأكلنى بلا رحمة .. هذه المدينة الهائلة تضغط بثقلها على أصبح قدمى الصغير ، فأظل أصرخ طوال الليل ولا أحد

يسمعنى ، فى هذه البرودة المختلفة برائحة العطن .. حتى فتحى أبو شنب خرج ، فعلها وخرج ، رأى الناس ، والشوارع ، والأضواء ، هل مازالت المحلات تضئ هناك وسط البلد ؟ ! هل مازال الناس يقبلون على سينما مترو ، وسينما رادوبيس فى الهرم .. والمقاهى مازالت تعج بالجالسيين والرواد .. العربات السريعة التى تطن فى الشوارع ؟!

الجسد الممد أمامى لا يتحرك ، لا تشعر بوجوده .. ولا يشعر حتى الأن بوجودى، أصبحت أكثر الناس أشتياقا وحاجة للحديث مع أى أحد وفى أى موضوع ، هل هذه هى نهاية حفيد عائلة البحار ؟ ! .. نهايتى هنا فى هذا المكان القمئ ، ألقونى هنا ونسينى الناس فى الخارج ، حتى زملائى فى البنك .. أكثرهم لم يحضر لزيارتي وبعضهم حضر مرة أو مرتين ، ولم يعد .. الناس فى الخارج سرعان ما ينسون إلا أهل إبهيت الحجر لن ينسونى أبدا ، كما لم ينسوا جدى على البحار .. البلد كلها تعرفنى وتعرف قدرى ومنزلتى فأنا حفيد عائلة البحار .. هل يمكن أن يأمر وكيل النيابة بالأفراج عن فتحى أبو شنب ..؟ ! هل أصبحت أنا المتهم فى نظرهم؟! لماذا سكت ؟!! كان بوسعى أن أقول لوكيل النيابة عنى وعن جدى على البحار وعن عائلة البحار .. كان يجب أن أقول كل شيء حتى يعرف منزلتى .. لماذا سكت هكذا ؟!! لا أعرف ، ولماذا

إذا واجهنى احدهم باتهام أسكت ولا أرد ؟!! قديما حين اتهمنى عميد الكلية بأننى الذى أرسل الخطابات إلى مديحة سكت ولم أدافع ، عن نفسى كان بوسعى . أن أصرخ فىوجهه ، أن اتحرك ، لا أن أقف عاجزا، ثم انصرف فى هدوء من أمامه بعد أن طردنى من مكتبه.. دائما ليس لدى ثمة مقاومة أو إرادة .. ها أنا ذا ألطخ عائلةالبحار بالعار .. لكن أهل أبهيت الحجر طيبون، لن يصدقوا ان شحاتة حفيد عائلة البحار يسرق .. هل اتحول فى نظرهم إلى لص محترف ؟!! أة لو صدقوا أوراق الحكومة ومحضر النيابة وأكاذيب فتحى أبو شنب .. فتحى ليس لديه ضمير يقظ ، ولا أمانة ، سيقسم بأغلظ الإيمان أمام الجميع أننى سرقت أموال البنك .. كيف تركت فتحى أبو شنب ينجو بحياته ؟!!

كان أمامى أيام طويلة فى الزنزانة الواسعة ، كان بوسعى أن أقتله .. اتخلص من العار الذى سيلطخ أسم عائلتى كان باستطاعنى أن أضربه بجردل المياه فوق رأسه وهو نائم ، أو أن ضع الباطنية الصوف على وجهه وأضغط جيدا حتى تنقطع انفاسه ، ساعتها سيقول الناس أن شحاتة البحار قاتل ، وهذا أفضل من أن يقولوا شحاتة لص .. لماذا لم أفعلها واتخلص من هذا الملعون ؟!! تراه الأن يسرد وقائع كاذبة اختلقها بعقله .. كى يحكم الأمر على ، وأصبح أنا المتهم ويفلت منها .. لماذا تركته حيا يخرج للناس يتكلم

عنى وينال من عائلتى وشرفى ؟!! دائما أفوت الفرص على نفسى .. كان بوسعى أن أفعل الأفضل ، لكننى دائما ما أتأخر عن الموعد المناسب ، لم أفوت الفرصة القادمة .. لن أجعلها تضيع هى الأخرى .. حين يعود سأكون فى انتظاره ، لانقض عليه كهرة جائعة تمسك بفأرها .. سأمزقه قطعا ، ولن أدع الشاويش حسن يخلصه من يدى إلا جثة هامدة ، هذا هو مصيره الذى يجب أن يلقاه على يدى ودون تأخير .

حين تنبهت لحركاته البطيئة .. خلته استمع إلى كل ما يدور فى عقلى .. لم انطق .. مسح عرقا بلل جبهته ، وسدد إليّ نظره بأحكام وأخيرا نطق

- هل أنت بشر يطين أم بأربعة شرائط ؟
- أحسست فى كلامه هزيانا ، ربما المرض يشوش أفكاره ، ابتسمت له وسكت
- هيئتك وسنك بنبئان أنك بشريطين ، أسمع ، إذا كنت بشريطين .. أو أربعة فلم أقول شيئا ، لن تظفر فى بكلمة واحدة ، لا تجهد نفسك معى قل هذا لرؤسائك .. مالك تقف هكذا كعمود الزان ..!!

قلت من يتصورنى ؟!! و هو يتهمنى بشيء ، لن أدعه يستمر، لا يمكن أن أظل صامتا، يجب أن أدافع عن نفسى ، هذه المرة لن أسكت .

- من تظننى يا رجل ؟!!
- أنت إما عريف بشرطين أو شاويش بأربعة شرائط ؟!!
- أنا سجين مثلك
- تقصد معتقل ؟
- لا بل سجين جنائي فى قضية اختلاس لكننى برئ منها..
- دسوك على لكى تستدرجنى فى الحوار وتحصل على معلموات أليس كذلك ؟!!
- بلى لم يحدث .

واستدركت فى الحديث .

- أظنهم ليسوا فى حاجة لأن يفعلوا هذا معك ، لديهم من الطرق ما هو أسهل
- أحس فى كلامك الصدق .
- من أنت ؟!
- عزت فهمى صحفى

- ماذا فعلت كى يعتقلوك ؟!
- لا أعرف .. أنها إجراءات السادات
- هل أنت من التيار الإسلامى ؟
- لا قلت لك صحفى .. هم يقبضون على الجميع، لم يعد هناك تصنيف .
- تململ من الحديث معى ، هكذا أشعرت ، ربما أدرك أننى لا أعرف كثيرا من شئون السياسة .
- تبدو أسئلتى ساذجة ؟ !
- لا تغضب منى ، ولكنى مريض كما ترى ويرفضون علاجى .
- معى بعض المسكنات أخذتها من مستشفى السجن كنت هناك ونصحتى الطبيب بأخذها عندما أشعر بالألم
- أعطنى واحدة ، فقد تنجح فى تخفيف الألم .

أخذت كوبا من الماء قدمتها إليه.. كنت سعيدا لأنه وثق بى .. الناس فى مثل هذه الظروف لا يثقون ببعضهم .. ياه كم تبعد إيهيت الحجر عن هذا العالم وعن السياسة ! باغتنى بسؤاله بعد

أن استند على الحائط وقعد قبالتى فأردا قدميه فى وجه الباب ، ربما شهر بشيء من الراحة الأن .

- شحاتة البحار موظف فى بنك .
- ما تهمتك ؟
- اختلاس .. لكنى برئ .. لم يصدر حكم ضدى ..إنه مجرد حبس احتياطى على ذمة التحقيق
- أصدقك .

ابتسم .. احست بدفء يملأ أوردتى .. أخرجت عليه السجائر نظر إلى عزت بشغف ، قدمت له واحدة ، أمسكها بشوق كأنه عثر على كنز .. أشعلت عود الثقاب .. أقتربت منه أكثر لأري ملامحه على ضوء الكبريت ، كان مازال صغيرا شابا .. عيناه تلمعان خلف النظارة .. شاربة الصغير يتدلى فى رفق .. شد نفس الدخان وملأ رئتيه حتى أخرهما .. بدأ الانتباه يعاوده وسعادة خفيفة تطل من خلف نظارته ..

- المعتقلون فى الخارج كلهم تقريبا من التيار الإسلامى .. رأيتهم وأنا قادم
- السادات لعب نفس لعبة عبد الناصر .. صعد على أكتاف الأخوان وأنقض عليهم وكذلك

فعل السادات .. تخلص من الشيعوعيين بمعاونة الإخوان .. ثم فعل ما فعله عبد الناصر بهم .

- ألا يتعلمون من التجارب ؟!
- أصبح الأخوان كقط أعمى يلتقط ما يرمى إليه .. لا يأكل ما يريده ، إنها مياه راكدة ترقد فيها التماسيح بجوار الإسماك الصغيرة .
- هل أنت متزوج ؟!
- لا
- وأنت ؟
- نعم .. هل تريد أن تشرب الشاى ؟
- كوب من الشاى الآن يصبح أثمن من الكرسي الذى يجلس عليه السادات نفسه .
- كلانا ضحية .. أنا ضحية فتحى أبو شنب وأنت ضحية السادات .
- سأريك الأن كيف تصنع كوبا من الشاى فى الزنزانة ..

لم أشعر بتلك السعادة التى هبطت بجناحيها كطائر نورس رقيق لامست قلبى المحترق، تنفس وعلا وهبط وقفز فى موقعه

كطفل صغير يلهو .. لم أشعر أننى فى السجن ، أحببت عزت فهمى، رويت له كل شيء عن نفسي عن مديحة وعن إبهيت الحجر وعن ليلى جدى على البحار التى تقام هناك كل عام .. أنصت عزت لى .. ظللنا طوال الليل .. ننفث الدخان من صدورنا كأننا ننفث هما كان راقدا داخلنا لا يتحرك .. أخذ يحدثنى عن حياته وعن عمله كصحفى .. كانت الدموع تطل من عينيه حين تذكر أمه التى انتزعوه من حضنها منذ يومين .. ألقوه بأيد غليظة فى السيارة المصفحة عند الفجر .. لم تشفع له صرخات ولا توسلات الأم العجوز ، مضى يحكى كأننا نلهو معا فى دور شطرنج فى أحد النوادى على النيل فى ليلة من ليالى صيف القاهرة الجميل ... حتى تحدث عن سمية ، كان حديثه رقيقا .. قال إن ملامحها الجميلة تشبه صوت فيروز .. مضى يحكى عن لقاءاتهما معا فى شارع البحر الأعظم الذى يطل على نيل المدينة .. كان يشبه النيل بشاعر صامت، يكتب قيدة لا يتلوها إلا العاشقون ..

تركته يحكى ، بينما كان وجه مديحة يسطع أمامى فى سقف الزنزانة .. أنشق وأطل القمر بجناحين يرفرفان كعصفور مسالم حط على قلوبنا حتى الصباح .

كان عزت فهى بالنسبة لى طوق النجاة من هذا الجحيم الذى أرقد فيه .... قضينا أياما طويلة سويا .. حكى لى عن كل

شيء ،وعرفت أشياء كثيرة كنت أجهلها .. كانت معرفته أكبر من سنه .. حتى جاء ذلك اليوم الذى كان نائما فيه ، بينما كان الحارس يدير المفتاح ويدفع بيد غليظة الباب الحديدى حتى انفتح عن أخره .. لم يكن الشاويش حسن طبعا .. كان أخر ، مد يده بقسوة تجاه عزت ، قبض على معصمه وأخذ يجره أمامى إلى الخارج كأنه كان يجر قلبي الجريح ، وينزعه نزعا من ضلوعى .. حين حاولت إيقافه صرخ .

- ابتعد أنت يا جنائي .
- وإلى أين ستأخذدوه ؟!!
- إلى مصيره ..

كان عزت فهمى قد أشار لى أن أكف بابتسامة باهتة ، دق على كتفى وفتح ذراعيه .. ألقيت جسدى كله داخل حضنه .. أحسست بلسعة أنفاسه الدافئه وتقطعها .

- أنت مريض ؟!!
- لا تخف على
- هل سأراك ؟!
- عندما تخرج من هنا سنلتقى .

ملأت كلماته البهو الكبير .. سمعها الجميع .. هويت على الأرض بجسد بارد متكسر . أية ريح غاضبة حطمت كل شيء هذا الصباح ... ظلنا طوال الليل .. كان يغنى " بطريقة فيروز "

أنا وشادى غنينا سوى

لأول مرة أحي أن لصوت فيروز كل هذا الجمال .. عرفت لماذا شبه سمية بصوت فيروز .. كيف لقطيع من الحمقى أن يسرقوا من قلوبنا كل هذه المشاعر النظيفة ؟!!

كنت أحس بالشاويش حسن يقترب من وجهى ، ويمسح دموعى ، يدفعنى برفق لأقف على قدمى .

– ما بك يا أستاذ شحاتة ؟ قف حاول أن تقف ، لا تنهار هكذا .

أفقت على كلماته .. التى أخترقت أذني .. تاهت ملامحه فى عينى المغرورقتين بالدموع ..

– مدام مديحة ..

قبضت على يده بشدة ، وانتفض الدم البارد فى عروقى ، هل قال " مديحة " ؟! هل سمعته يذكر أسمها ؟! أم أنه بقايا من وهم الأمس مازالت تطن فى أذنى .. ضغط الشاويش حسن أكثر على كتفى وأخذ يهزنى بشدة .

- **يا أستاذ شحاتة .. مدام مديحة تنتظرك فى مكتب مأمور السجن والمحامى معها وقد أحضر لك خطاب الإفراج .. مبروك .**

(٣)

.....

...

الحرية لا يمكن أن تكون فى تمثال
الحـريـة كائن خرافى لم يولد بعد

الشارع العجوز الذى يمتلأ بضجيج السيارات ونداء الباعة الجائلين حين ينتصف الليل يهدأ ويغط ساكنوه فى نوم عميق ... لا تكاد ترى ببصرك أتيا من بعيد ، حين تطل على الشارع من بلكونة شقتك فى الدور الخامس .. تبدو كجرو صغير يتطلع إلى البنايات الشاهقة فلا يدرك ببصره أخرها .. كانت لدى رغبة حميمة فى التسكع .. نزلت واضعا الكوفية الزرقاء حول رقبتى .. وتمنيت ألا تشعر بى مديحة ، تبدو كملاك أبيض نائم .. حرصت على ألا أحدث ضجيجا يقلقها ، كانت تشعر بتغير طرأ على بعد خروجى من السجن .. كان صمتها أكثر براءة منها ..

ملأت رئتى بالهواء أمام باب العمارة وترنحت كشارب لم يفق بعد .. تخطيت البناية التى تجاورنا .. استقبلت الشارع الواسع ، رأيت بعض السيارات العائدة مجهدة تحمل أصحابها فى تعب.. وضعت يدى فى جيبي باحثا عن سجائري .. تذكرت .. رأيتها ولم أعرها اهتماماً ، وأنا خارج كانت على الكومودينو ، تصورت للوهلة الأولى أننى لن أحتاج إليها فى هذا الوقت المتأخر .. ما أحلى التسكع .. والتسكع يعنى أن تسير بلا قصد وبلا هدف وذلك أجمل ما فيه .. لماذا لم أعرف طول عمرى أن لهذا الوقت جمالا خاصا ؟!! لا يدركه إلا العارفون .. كنت أعتقد فى ما مضى من العمر أن التسكع للأولاد الصغار الذين لا يجدون شيئا جادا يفعلونه فى حياتهم .. هذا كلام فارغ ، من الآن فصاعد سأكون أحد المواظبين على التسكع ، وواحد من أهم المتسكعين ليلا .. عندما يقابلك أحدهم عن بعد تجد فى عينيه لغة لا تقرأها بسهولة .. يعرف أنك تشاركه لذة لا يفهمها إلا القليلون من البشر .. يعرف أنك من المخلصين وأنك قد وصلت إلى درجة من فهم الحياة بعمق بحيث فهمت وأدركت معنى التسكع .

لغة تنبىء عن إعجابه بك وأنك قد أصبحت من الصائدين الذين يتصيدون فرائسهم الثمينة ليلاً بينما يغط الغافلون فى نوم

ساذج .. يرقدون فى كهوفهم المعتمة ربما عاما أو أعوما ثم يصحون فيقول أحدهم للآخر ؟

- كم لبثنا ؟!!!

- يوما أو بعض يوم .

هنا أمام الكشك الصغير الذى تطل حافته اليمنى على شارعنا وحافته اليسرى على الشارع الواسع ، يقف المتسكعون برهة لالتقاط الأنفاس ولكى يتزود كل منهم بزاد يكفيه الطريق الطويل الذى لا يعرف نهايته .... نهايته هى بزوغ الشمس ، وهو يقف هنا أمام هذا الكشك لأنه ربما لا يجد من يتزود عنده الآن فأصحاب المحلات يرقدون فى انتظار الصباح ، حين تقتح أبواب الحظائر وتنطلق الخراف الراقدة طوال الليل بحثا عن الكلأ ، تفتح أفواهها جائعة شرهة تتدافع لا تعبأ بشيء ولا تلتفت ورائها حتى تعود إلى المساء مجهدة خائفة ومعدتها محشوة عن آخرها تحك انوفها فىالأرصفة من كثرة الشبع . . وقفت أمام هذا الكشك كبقية الواقفين ، عندما نظرت إلى الفتاه التى تقف بين الأرفف الصغيرة المرصوص عليها البضاعة بعناية ، البضاعة التى يقبل عليها المتسكعون امثالى .. وقعت عينى على أرفف السجائر ودون تفكير عرفت أنه لا يكتمل الأمر إلا بواحدة .. تأكدت من ذلك حين رأيت أحدهم وكان يبدو متسكعا وماهرا فى التسكع وقد وضع

علبتين فى يده ومضى ، عرفت أن الرجل يعتزم أن يكمل حتى طلوع الفجر ، قلت أكتفى بواحدة .. أطلت بوجهها ناحيتى ، كانت نحيفة .. تبتسم فى رقة للزبائن وتمسك الأشياء بأطراف أصابعها وهى تقدمها إليك .. لا تنظر إلى النقود .. وتكتفى بعدها بعيدا عن نظرك .. حين تعطيك ظهرها وهى تضعها فى الدرج.. تمنحك حيوية حين تضغط على شفتها وتقول :

- تفضل .. الباقى .

تنتعش أطرافك حين تهب لسعة هواء باردة من ناحية المياة .

- أريد الهاتف من فضلك .

لم أحسب الوقت ولا أعرف كم الساعة الأن ، فقد تركتها هناك على الكمودينو بجوار السرير ، تعلمت أن الساعة تفسد التسكع ولا يجوز أبدأأن تضعها فى يدك وقد تمر ست على ذلك .

الشارع الذى يعج بالضجيج طوال النهار ويرقد الآن كوحش نهم ابتلع كل شيء فى بطنه وجلس ممددا فى هدوء ينظر إلى الذين يرتادونه ليلا من أمثالى ، ولا يقدر على الحراك ، ينظر إلينا يفتح عنيا ويغمض أخرى من التعب أدرت قرص الهاتف .. جائني صوتها.

- آلو . . آلو ..

كانت ترددها بشفتين امتزجا بندى الصباح المقبل .. تركتها ترددها حتى اغلقت الخط .. أدرت قرص الهاتف كمراهق يستجمع شجاعته التى تلاشت حين أتاه صوت فتاته على الجانب الأخر فشعر بالخجل يقتحم جسده .. كانت البائعة تتابعني بطرف عينيها ، وأنا أدير قرص الهاتف للمرة الثانية .. أتانى صوتها أكثر يقظة.. بيدو أنها أفاقت من نومها على رنين الهاتف المتواصل

- .. ألو ... ألو .. أنت شحاتة البحار ؟ .. أرجوك تكلم
- أسف لأننى ايقظتك ... يامدام فريدة
- كيف انتظرت طوال هذه المدة ، منذ أن أعطيتك الكارت فى البنك ؟!!
- أريد أن أتعرف عليك أكثر ، الاسم ليس غريبا على .
- لن يصلح الحديث فى التليفون .. وأيدك فى أمر هام.
- وكيف ستلتقى ؟
- دع الأمر لى سوف أعرف كيف أجدك .

علت ضحكتها فى الهاتف حتى رأيت ابتسامة البائعة تقع فى يدى ... انزعجت فى أول الأمر حتى كدت أن أضع سماعة الهاتف فى وجه فريدة المرص .. لكن قررت إنهاء المكالمة ..

- اتفقنا تصبحين على خير .

وضعت السماعة ، كان أحدهم ينتظرها . .اعطيت للكشك ظهرى سريعا .. كى أهرب من نظراتها ، وتابعت السير فى هدوء ، لماذا تحدثت إلى فريدة المرص الآن ؟!! كيف خطر على عقلى هذا الأمر ؟!! وماذا تريد منى فريدة ؟!!

نظرت إلى صفحة الماء الرائق ... يمنحك شعورا بالارتياح .. تملأ صدرك من الهواء القادم مختلطا برزاز الماء الذى تقذفه الأمواج الهادئة وكأنها لا تريد ان تحدث صوتا يزعج المتسكعين حولها .

ها أنا سأواجه الأن شارع القصر العينى وإذا سرت أكملته إلى نهايته سأكون فى ميدان التحرير ، وربما تأخذنى قدماى إلى وسط البلد ، حيث المحلات المغلقة وأبواب العمارات الموصدة والحراس الذين يتثاقلون أمام مواقع الحراسة .. يختلسون قسطا من الراحة قليلا .. ثم يواصلون سيرهم فى رتابة كأنهم يعدون الوقت على أصابعهم .. كان صوت أم كلثوم يتهادى من بين عمارتين شاهقتين وضوء خافت ينبعث من كافتيريا مدفونة بينهما لم يشأ

صاحبها أن يضع لها اسما أو لاحظت وجود اسم لكنه طمس مع مرور الزمن .. الرجل العجوز الواقف داخل الكافتيريا .. يفرك عينيه ليزيح النوم عنهما ، نظر إلى كأنه يستعطفنى للجلوس ، قدماى سبقتا توسلات الرجل ، هويت على أول كرسى ، كان العجوز مدرك بخبرته أن فرسته قد وقعت ولابد من الانقضاض عليها الآن .. تحرك ناحيتى فى خفة لا تتناسب مع سنه ...

- عندى قهوة وشاى ، ولدى سحلب وحلبة، وإذا أردت شايا بالجليب أو قرفة.. أنا تحت أمرك ، لدينا كل ما تريده .

أصبح الاختيار صعبا مع هذه القائمة الطويلة، لم أكن أريد إلا الراحة .. أدرك الرجل أننى لم أسعفه بعد أن طال وقوفه أمامى .

- أفضل لك الشاى فى هذا الوقت ، سأحضر لك كوبا من الشاى .. المصريون يحبون الشاى جدا .. الجميع هنا يطلب الشاى.

أزعنت لرغبته وسعدت لأنه أخرجنى من تجربة الاختيار.. قليلون هم من يستطيعون الاختيار يمكنك أن تختار الأسهل بدلا من أن تختار الملائم أو ما يناسبك.. هكذا كان يقول عزت فهمى .. حين كنا سويا فى الزنزانة ، عندما ألقى به السادات فى السجن .

وضع كوب الشاى الساخن أمامى .، كان بداخله كلام كثير ، رأيت ذلك على شفتيه ، حاولت أن أهرب برأسى بعيدا عنه ، همس .

- لا تقلل من قدر هذه الكافتيريا يا سيدى ، هذه الكافتيريا كان يجلس عليها البكوات أيام الملك .. قبل عبد الناصر ، انظر إلى كوب الشاى، قليلون هم من يستطعون أن يصنعوا الشاى مثلى .

شهية العجوز للكلام بلغت مداها ، لم يلحظ تململى أو لاحظ .. لكنه كان متدفقا فى الحديث ، فقد وضع الزبون فى القفص ولا حيلة له، لن يستطيع الهرب .. نظرت إلى تجاعيد وجهه ، كانت تنبئ عن أزمان مضت تجاوزها الرجل .. عالم لم يعد موجودا، أبطال وشخصيات أصبحت تاريخية .. خطوط بعرض الجبهة وجرح قديم فى متنصفها .. وشارب أبيض يسويه العجوز بعناية ، يفرد ابتسامة تمثال على وجهه ، تضيع فى تقاطيع الوجه المربع ولا يبقى منها شيء.

- السياسيون والصحفيون وكل الكتاب كانوا يأتون إلى هنا ، هذه الكافتيريا شهدت الكثير ..
- هل تعرف الأستاذ عزت فهمى الصحفى ؟

لا أعرف لماذا خطر على بالى أن أسأله عن عزت فهمى

- الصحفى .. ؟ أعرفه هذا أفضل زبون عندى .

اهتز الكوب فى يدى .. تناثرت بقع الشاى على ملابسي.. جرى العجوز مسرعا وأحضر منديلا وأخذ يمسح البقع من القميص .. معتذرا عن خطأ لم يرتكبه ..

- منذ زمن لا يحضر .. لا أعرف السبب .. أنا دائما أقرأ له مقالاته .. فى الأيام الأخيرة كان يقول كلاما جريئا .. وعندما كنت احذره كان يقول لى لا تخف ، البلد أصبحت حرة ، السادات هدم المعتقلات .. لكنه أختفى .. ربما سافر إلى الخارج .. الصحفيون دائما يساقرون إلى الخارج .

اعطيته الحساب بيد مرتعشة وانصرفت .

- سوف انتظرك .. يا أستاذ الكافتيريا تظل مفتوحة حتى الصباح .. إذا عاد الأستاذ عزت سأخبره أنك سألت عنه .

كلمات العجوز تناثرت خلفى .. وملأت فضاء المكان بين العمارتين الشاهقتين حيث يغط ساكنو العمارتين فى نوم عميق ، بينما يتهادى صوت عبد الوهاب من مذياع تمسكه جندى حراسة

(إما الحياة وإما الردى)

- عبد الناصر حمل صخرة سيزييف وصعد الجبل لكنها وقعت منه ، أما السادات فحملها لكنه لم يصعد ..

لا أعرف لماذا يظهر لى وجه عزت فهمى الذى تركته فى السجن ولا أعرف مصيره.. فى هذا الوقت المتأخر ... أطوف الشوارع دونما غاية أو هدف ، يظهر بوجهه الذى يشبه بطل (كافكا) فى رواية " القصر " البطل الذى لا يملك شيئا .. لا أسره ولا وجه ولا تاريخ ولا حتى اسم، أنه مجرد حرف .. السجن لا يصنع إبطالا كما يظن السياسيون ، السجن يصنع أنصاف رجال ... مقهورين ، عاجزين .. حين قلت لمديحة أن الحاج على البحار زارنى فى السجن وكان متهللا .. باسما وضع يده اليمنى على كتفى وأشار لى بعصاته فى اتجاه غامض لا أعرفه ، اتجاه لا يمكن تحديده بسهولة أو بمجرد النظر سريعا ، لم تسعفنى الذاكرة كى أروى (لمديحة) كل شيء عن كرامات جدى ، لكن ما أتذكره جيدا الآن أن جدى كان له يد فى خروجى من السجن وإطلاق سراحى .. كنت على يقين من هذا .. أدركت ثقل هذا الكلام على مديحة ، لم اعد اتفوه به أمامها .. امسكت عن الحديث فى هذا الموضوع .. كانت مديحة سعيدة لذلك ..

تهلك الموظفون فى البنك حين رأونى قادما من الباب .. كثرة العناق والمصافحة كادت تخنقني حين وضع عم عثمان القهوة أمامى وشممت رائتحتها عرفت أننى فعلا قد عدت إلى عملى ..

- القهوة فى كوب وليست فى فنجان يا أستاذ شحاتة ..

ابتسمت وضحك الرجل واستدار للأنصراف ، ثم عاد ومال على أذنى كأنه تذكر شيئا..

- المدام سألت عنك كثيرا ..
- مديحة ؟!!
- لا يا أستاذ.. المدام التى زارتك هنا ..

أه .. نعم تذكرت ، أنه يقصد (فريدة المرص) لماذا تحوم حولي ابنة إبهيت الحجر ؟!! وماذا تريد منى ؟!!

كيف استطاعت ابنة المرص أن تصل إلىّ فى وسط كل هذا الزحام الذى يبتلع كل شيء ، وكيف أصبحت تمتلك كل هذا الجمال ؟

كان ابتعادى عن البلد نقمة أدفع ثمنها بمفردى .. هل فريدة فى مأذق وتريدنى أن أقف بجوارها أساندها كما يفعل أهل إبهيت الحجر حين يقفون مع بعضهم فى الشدائد ؟ هل مازالت فريدة المرص تحتفظ بهذا العقل الساذج الذى يفكر بطريقة أهل

إبهيت ؟ أن هذه الطريقة لا تصلح إلا هناك فى البلد وعند أهلنا ، أما هنا فى القاهرة فلا .. لم أعد احتفظ بتلك التقاليد ، وضعتها فى المرحاض حين حضرت إلى هنا .. وأصبحت كائنا أخر .. هل يعقل أن تتصور فريدة ذلك ؟!!

تتصورنى أحد فتوات نجيب محفوظ ؟! أو ربما تتصورنى كأحد شخصيات " شجرة اللبلاب"؟!

أخطأت فريدة ابنة المرص ، لقد حولتنى القاهرة إلى كائن أخر .. لا يبالى كثيرا بالمشاعر ولا بالفتيات اللاتي تتراص أجسادهن ليلا على رصيف شارع البحر الأعظم .. المساء هنا عامر بعيون يقظة وقلب ينبض حتى الصباح ، ليس كمساء إبهيت الحجر الساذج الذى هو للكلاب التى تنبح فى البرارى وللذئاب التى تعوى .. أما البشر فداخل قبورهم الإشارات هنا حين تنفتح تلهث السيارات وهى تتخطاها فى قفزة واحدة ، أما أبهيت الحجر فلا تملك إشارات ولا ليل ولا مقاهى ولا سيارات .. إبهيت لا تشاهد المساء إلا فى ليلة جدى على البحار ، أما بقية العام فالمساء للنوم ..... أين وجه أبى ؟! لماذا لا اتذكره ؟! أو أعرف ملامحه ؟ لماذا تهرب من ذاكرتى كلماته؟ مات شابا صغيرا وألقانى هنا فى المدينة التى لا ترحم .. لا ترحم صغيرا مثلى .. رحل هو ، حيث لا يعود المسافرون أبدا .. تركنى مثل صقر صغير لم يتعلم التحليق ، ولم

يتلق فنونه .. فلا يعرف كيف يفرد جناحيه ؟ ويترك الهواء يحمل جسده متنعشا مثل بقية الصقور .. تركنى ألهث وراء المترو الذى لا يعبأ بهموم الراكبين ، ولا يهتم بمشاعرهم أبدا ، يلقهيم على أرصفة المحطات دون اكتراث ، كأنه يلقى بضاعة مهملة أو بعض النفايات ، أبهيت الحجر لا تعرف المترو وليس هناك محطات .. محطة المترو هى أول شيئ أقصده بعد أن أنزل من العمارة حيث رحلة الذهاب إلى البنك وسوف ينتهى بى الأمر عائدا إلى ذات المحطة ، ربما تختلف الوجة لكنها نفس الأجساد التى تبدأ يومها يقظة وتعود مجهدة نافقة ، نفس الاهتزازوات الرتيبة المنتظمة .. كل شيء يبدو عاديا لا أفكر فى شئ إلا النوم ، بعد تناولى الغداء سوف أدخل مباشرة إلى غرفة النوم وأغلف الشبابيك فلا أدع الضوء يتسلل إليها حتى يكون النوم هادئا ومريحا .. ومديحة اعتادت ذلك وتعودت عليه .. حين أدخل إلى النوم تعرف مديحة أنه لا يجوز مطلقا أن توقظنى مهما كان السبب الأمر لا يقبل النقاش وهذا النوم الهادئ هو ما يتطلبه عمل طوال الليل فى التسكع لكى يكون التسكع مريحا ومؤديا لأغراضه يجب أن تنام بعد تناول الغداء مباشرة ، فيكون جسدك تواقا إلى النوم والراحة .. وعندما تقوم ، ستجدك نشيطا ويزيدك نشاطا ويقظة فنجان القهوة ولا تنس أن القهوة يجب أن تكون فى كوب وليست فى فنجان .. لأنها فى

الكوب يكون طعمها ألذ ردائما تشعر برعشة خفيفة عند أخذ الرشفة الأولى من القهوة ، ربما لا تحس بهذه الرعشة فى الرشفات التالية:

حين وجدت يدها ترفع المخدة التى اعتدت وضعها على أذنى حتى أصمهما عن سماع أية أصوات تتسبب فى انشغالى عن النوم أو تحدث نوعا من الأرق .. فلا يكون النوم صافيا مريحا .. حين وجدت يدها ترفع المخدة تربعت على السرير فجأة .. كانت عنياها تحدقان فى .. كأنهما طائران فرا من عشهما توا

- مديحة ! . ما بك هل حدث شيئ ؟!!
- العمدة ينتظرك ومعه شيخ الجامع
- أين ؟
- من الصالون
- هنا فى شقتنا ؟!!
- نعم

كانت رمية من غير رام .. لم أعتد مثل هذه الزيارة .. موعد ليلة جدى على البحار مازال بعيدا .. هل هناك ترتيبات يجب عملها مبكرا هذا العام ؟!! قلت .. ربما . . مديحة كانت تعد لهما الشاى ، حتى انتهى من ارتداء ملابسي أسرعت إليهما متهللا كعادة أهل إبهيت الحجر فى استقبال ضيوفهم حتى أشعرهم بدفء اللقاء .. عانقتهما بعد المصافحة ورحبت بهما أشد الترحيب واستعملت

كل الكلمات والجمل التى تقال عندنا فى البلد عند الجلوس مع الضيوف ، أما مديحة .. قدمت لهما الشاى والعصير .. قدمت لهم الكيك ووضعت سلة من الفاكهة أمامهما وذهبت إلى المطبخ لكى تصنع العشاء للضيفين فلابد من أكرامهما بإعداد الطعام لهما .. هكذا كنت انصح مديحة دائما حين يحضر إلينا أحد من البلد وقلت لها .. لا تتأخرى أبدا عن ذلك .

أخذ العمدة ومعه شيخ الجامع يحكيان ما جرى فى البلد بعد ليلة جدى فى العام الماضى ، وكيف أنهما يرغبان هذا العام فى دعوةالمأمور ورئيس المدينة ليشهدا الاحتفال كيف أن كثيرا من القرى المجاروة أعلنت أنها ستشارك بوفود عنها فى الليلة .. كان حديثهما ممتعا وكانا يعاملانى كطاووس مدلل .. كل مرة كانا يسألانى عن رأيي فيما يقولانه كنت أجيب على الفور بأننى أوافق طبعا على كل شيء دون مناقشة .. كان يقينا ما يدفعنى لأن أسأل نفسي عن السبب وراء الزيارة المفاجئة .. حين جلسنا على سفرت العشاء ، كان العمدة وشيخ الجامع يتبادلان النظرات . . لاحظت ذلك جيدا عن غير قصد .. هذه النظرات تدل على رغبة فى شيء ما لم يعلنا عنه إلى الآن .. قال شيخ الجامع الشيخ سيد ياسين وهو يسرد الأخبار كعادة أهل إبهيت الحجر حين يجلسون على مائدة الطعام .. لا يصمتون مثلنا ، بل يتكلمون فى كل شيء ، راح

الشيخ سيد ياسين يحكى وهو يبتسم للعمدة وأنا أتابعه رغم ما أبديه من أنشغالى فى الأكل .

- اسمع يا حضرة العمدة .. وأنت يا أستاذ شحاتة .. أنا قرأت فى الكتب القديمة التى ورثتها عن والدى الله يرحمه .. حكاية عن سيدنا معاوية .. طبعا تعرفانه .

رد العمدة سريعا :

- سيدنا معاوية الذى أخذ الخلافة من سيدنا على .. ؟
- نعم هو بالضبط .. والحكاية تقول أن سيدنا معاوية عندما أراد أن يأخذ البيعة من بعده لابنه يزيد وليا للعهد ، قام أحد عماله وهو يزيد بن المقنع وقال " أمير المؤمنين هذا .. وأشار إلى معاوية.

" فأن هلك فهذا " وأشار إلى يزيد .

" فمن أبى ، فهذا " وأشار إلى سيفه .

فقال له سيدنا معاوية " أجلس ، فإنك سيد الخطباء "

ضحكنا من قلوبنا ثم رأيت نظرة رضا من العمدة لشيخ الجامع ، ففهمت أن فى الأمر شيء وقال العمدة بعد أن مهد له الشيخ سيد ياسين بحكايته عن معاوية .

- وأنت يا أستاذ شحاتة لمن ستأخذ البيعة من بعدك ؟!!

كان السؤال فخا كأنه ألقى بى فى محيط من الأمواج .. أحس الرجل بما فعل حين رأى شرودى وإنكسار رأس .

- أنا أقصد هل أتى ولى العهد حتى نبارك ويبارك أهل البلد معنا ؟!
- لم يشأ الله بعد يا حضرة العمدة .

تنحنح الشيخ سيد ياسن بعد أن هم ليغسل يده وتابعته حتى اقترب من أذنى

- لا تغضب منا يا أستاذ شحاتة .. أنت تعرف مكانة جدك الحاج على البحار وليلته وأنت حامل الراية الأن ولكننا يجب أن نطمئن على هذه الليلة كرامة لجدك ولأهل البلد الذين أصبحت لهم مكانة بين البلاد عندنا .. ولا نريد أن يضيع كل هذا فجأة من أيدينا وقد أكرمنا الله بجدك وبك .

- ولماذا يضيع كل شيء يا شيخ سيد ؟!!
- الأعمار بيد الله يا ولدى .. لكن أنت تعرف أن أعمار عائلة البحار قصيرة وأنتم لا تعيشون كثيرا ، لا تلومنى يا ولدى على قوستى فى الحديث معك .. لكن هذه هى أرادة الله، وأنت مؤمن .

واصل العمدة حديث الشيخ سيد بعد أن تلعثم الرجل وتاه فى حديثه .

- أنت يا أستاذ شحاتة مقبل على الأربعين بعد سنوات قليلة ، وكلنا يعرف أن أفراد عائلة البحار لا تتجاوز الأربعين أبدا ، حتى حبك على البحار صاحب الليلة وأبوك من بعده الحاج جلال البحار مات شابا ولم يتجاوز الأربعين ، وأنت إلى الآن لم تنجب فإن فقدناك لم نجد من بعدك من يحيى الليلة .. يجب أن تتصرف وبسرعة.

إستاذنا وأنصرفا ، بعد أن أدركا أنه لا يمكن بعد هذا الحديث أن يجلسا معى أبدا فقد ألقوا بالجرو الصغير فى فضاء الصحراء الشاسعة ، رحلا إلى البلد وتركانى .... لم تفهم مديحة شيئا

مما حدث ، تركتنى بعد أن أحست بعدم قدرتى على الكلام مع أحد حتى معها .. أحسست بروحى وهى تنسحب من أجزاء جسمى من رأسي ويدى وبطنى .. أحسست بالآلام تحركها فى شراييني حتى شعرت بها تتجمع فى أصبعى الصغير .. كنت أرى ملك الموت يجلس متربعا على السرير فى غرفة النوم المظلمة ينتظرنى ، أرى نهايتى أمامى .. خطوات قليلة أمشيها إلى المقصلة حيث الجرو الصغير سيذهب بنفسه طواعية إلى الذبح .

لم يكن يشغلنى هذا الأمر .. ولم أفكر فيه من قبل ولكن كيف ؟! كل الشواهد تؤكد أن كلام العمدة والشيخ سيد ..... هذا هو أبي مات شابا ومن قبله جدى .. لا يوجد أحد من أفراد عائلتى .. أنا أخر سلالة عائلة البحار أنا مقبل الأن على الموت مرغما .. أيام قليلة تفصلنى عنه ، عام أو عامان .. ربما شعرت بلهفة إلى الخروج .. كدت أختنق .. أحست مديحة بى مضطربا على غير عادتها.. كانت تفتح الباب لتطل على ثم تغلقه مرة ثانية فى هدوء .. تتصورنى نائما .. بل أنا يقظ يا مديحة.. ماذا سيكون رد فعلك يا حبيبتى إذا عرفت أن نهايتى أوشكت ؟ نهاية مثل نهايات الروايات التقليدية حيث يموت البطل بلا سبب ، السبب الوحيد هو أن المؤلف قرر أن يميته بقتله عن عمد ، يزهق روحه فجأة لكى تشتعل الدراما فى الرواية ، حتى يصفق له القراء والنقاد كيف اتصور

أن كل شيء سينتهى فجأ؟ ألا يوجد ناقد حاذق يرفع يده ويهزا من هذه الروايات ؟!! مثل الناقد الدكتور الذى جلس على منصة الاتيليه يقرأ أشعاري ويهزأ.. يضحك بسخرية يمد يده ويعبث بأوراقى .. يصفتها بالكلام الأحمق الساذج ، يطوح بعضها فى وجهى ويقول .. اين الشعر فى هذا الأوراق ؟! .. كنت صغيرا أبحث عن شيء أحبه ، لم أجد غير الشعر ، كتبته كعصفور صغير يدق بمنقاره فى صفحة الماء حين يرى نفسه وكأنه يصارع طائرا آخر ، الموت قادم إلى أيها الناقد المحترم .. ألا يمكن أن يخطأ فريسته هذه المرة .. عائلة البحار أعمارها قصيرة.. الموت قادم ليخطفنى من حضن مديحة .. لن أفارقك يا مديحة، سوف ألقى نفسى فى حضنك ، سوف أجلس بجوارك الأيام الباقية لى فى هذه الدنيا.. سوف أمنحك حبا لم تعرفه أمرأة ولم يقدمه رجل من قبل .. عام أو عامان هو ما بقى لى فى العالم بكل ضجيجه وصخبة .

حان وقت التسكع .. وضعت الكوفية حول رقبتى ونزلت غير راغب فى أن تقع عين مديحة على وأنا فى هذه الحالة .. حين قبضت على مقبض الباب أتانى صوتها من المطبخ .

- ماذا كان يريد العمدة وشيخ الجامع ؟
- ليس شيئا مهما.
- هل أنت خارج الآن كعادتك ؟

- نعـــم .

أه .. لو رأت مديحة الدموع التى ملأت عينى والارتعاشة الخفيفة التى تنتابنى وأنا أبادلها الحديث .،كنت ماضيا فى تسكعى ، لا أعبأ بشيء .. العينان مصوبتان إلى الأمام والقدمان تتحركان فى آلية كأنها تسير على إيقاع طبلة منتظم كخطوات الجنود فى طابور السير المعتاد ، وصلت إلىالكورنيش فى زمن أسرع .. بدوت كمن لا يفهم التسكع ولا يدرك معناه .. مكثت وقتا طويلا فى النظر إلى صفحة الماء الرائق الذى تنعكس عليه الأضواء الآتية من بيعد ، حين توقفت السيارة بجوارى وشعرت بها لم أعبأ بسائقها ولم ألتفت إليه كنت مشغولا بمتابعة الأشياء الصغيرة بنهب كعادة المتسكعين .. أتاني صوتها من السيارة .

- أستاذ شحاتة البحار .

التفت على عجل .. كانت فريدة المرص تجلس على مقعد القيادة فاردة شعرها الذى يتمايل على كتفها ويتحرك حركة خفيفة حين يدفعه الهواء البارد الذى يتسرب من شباك السيارة .. عيناها يطل منها نجمان صغيران يسطعان فى سماء زرقاء .. كأنك يا فريدة (فيا) ، الفتاة الجميلة التى أرتدت أروع الأزياء .. دخلت إلى أثينا وهى جالسة على المحفة فى عظمة ومن حولها الأعوان والأنصار يهللون بجمالها ، كانت (فيا) قادمة بكل هذا الجمال لتعيد

بيزسترانوس إلى هضبة الأكروبول، أى إلى مقعد الحكم فى أثينا .. عندما رآها صولون المعارض اعتزل السياسة وعاد إلى أثينا ووضع أسلحته خارج باب داره كرمز لاعتزاله الأعمال السياسية وانقطع لنظم الشعر فى (فيا) ، أى سلطان لهذا الجمال الذى أدهش هيردوت وحيره، لأن الاثنيين صدقوا هذه الجميلة بسذاجة .....(فيا) اخضعت الجميع من أذكياء أثينا واعطت للجبار بنرسترانوس تسع عشرة سنة من حكم أثينا كم ، تشبهين (فيا) يا فريدة ؟! .. لماذا تطاردينى ؟!! ماذا تريدين يا فيا منى ؟! أنا لست فى حالة مزاجية جيدة

- إلى أين ؟!!

- لا تسأل

انطلقت ، تجوب شوارع القاهرة يمينا ويسارا كأنها مثلى من المتسكعين ، ويبدو أن التسكع بالسيارة يعطيك فرصة أكبر لتجوب كل الشوارع وتمرح كما تشاء ... ضغطت على الفرامل فجأة فاندفعت أجسادنا إلا الأمام ثم عادت . . ضحكنا .. التفت بموجهها المضيء واقتربت منى أكثر .. بدت كمن يحاول أن يستجمع قواه.

- شحاتة .. أرجو أن تسمعنى دون أن تجيب .. لا أريدك أن تجيب الآن .. دع لنفسك فرصة .. المهم أن تفهمنى .

لم يكن لحديثها المتحفظ بهذه الطريقة معنى على الأطلاق حتى الآن .. وهى تبدو خجلة كعذراء لم تخرج من بيتها لتواجه رجل .. ليس بوسعى أن أفعل شيئا ، أنا مستسلم لك يا فريدة .. أنا فى حالة سيئة يجب ، أن تفهمى ذلك

- لماذا تطيل النظر إلي ولا ترد ؟!!
- قولى ما تريدين يا فريدة .. أنا ضائع كما ترين .. تائه سوف أكون لك أذنا ..
- أريد طفلك أن يكون منى .

اعتدلت فى جلستى بجوارها .. انزلت زجاج السيارة بعض الشيء حتى يسمح للهواء الآتى من على الماء بالدخول كى يزيل بلورات العرق التى هاجمت جبهتى ، لم انطق ولم أفهم ما تقول .. أمسكت يدى

- أنا اعرف أنك تحب مديحة .. لكن مديحة لن تنجب لك الطفل .. أنت تريد الطفل .. تريد من يخلفك الأن وبسرعة .

العالم كله يقع أمام عينى الليلة

- لدى مال كثير .. لكنى أريد أن أعود إلى إبهيت الحجر ، وأنا أحمل طفل عائلة البحار . . أحمل صاحب الليلة ، من يخلف

الحاج على البحار فى مقعده .. فشلت مديحة فى ذلك ، وأنا أولى منها بهذا الطفل .. أنا ابنة إبهيت الحجر .. أنا فى حاجة إليه .. هو كل شيء بالنسبة لى .. ربما لا تفهم الآن .. لكنها الحقيقة .

تركتنى وانطلقت بسيارتها بناء على رغبتى الملحة ، نزلت كأعمى يتحسس الخطوات لكن لا يعرف اتجاهها .. تركت لقدمى الحرية فى أن تسير كيفما شاءت .. ماذا تريد ابنة المرص منى ؟! تريد طفلا .. هى لا تريدنى بل تريد طفلى فقط ، لها كل الحق .. فأنا ذاهب عن الدنيا .. ارتميت فى حضن الرصيف المقابل .

كنت أبكى .. أبكى ودموع كثيرة تنسال ، أين انت يا جدى ؟!! لماذا تترك حفيدك كجزع شجرة ضاع شارد ، ككلمات ت صامتة لا تتحرك .. كحروف بلهاء متحجرة لا ترمز إلى شيء .. جدى .. لماذا تردد كلمات لأفهمها ، كأنها تخرج من توها من بئر لا قاع له ، أنت تتعمد أن تصورنى فى لوحة شائهة ، طفل ساذج .. طفل معتوه ، يركض وراء دمية .. لماذا تحدثنى عن أشياء لا أفهمها ؟! ماذا يعنى قولك أن القرب الذى اعرفه فى القرب الذى تعرفه كمرفتك فى معرفتى ؟!! أنا أعرف أنك ربما تردد كلمات النفرى .. تقول انا الذى لا يرومه القرب ولا ينتهى إليه الوجود.. لماذا تتعمد

إيذائي ؟!! هل تتصورنى اننى غير قادر على إنجاب حفيد لك ؟!! أنت تفهمنى بالطبع .. ربما أقول كلاما لا يروق لك .. ؟ عندما تنزل لحتيك قليلا إلى أسفل أعرف أنك غير راض عنى .. يجب أن تفهمنى جيدا، الخشوع ليست كلمة تقال ، الخشوع حالة .. لا لا الخشوع اكثر من ذلك ، ربما أبدو الآن غير قادر على تحديد ما أريده بالضبط .. لكنك تتفق معى أننى لكى اتقن الخشوع لابد أن أجيد أشياء أخرى غير التفاصيل الخارجية ، أنا أقصد الداخل .. أعنى أن هناك ما هو أعمق، ما هو يمكن أدراكه إذا اتقنا لغة أخرى.. الكلمات لا تبدو منضبطة .. لا استطيع أن أجد سياقا ملائما الأن لما أود قوله .. النوم هو السبب .. كنت بحاجة ملحة إلى النوم.. عندما ايقظتنى مديحة لاستقبال العمدة وشيخ الجامع كنت لم أخذ حقى فى النوم .. لذا يبدو الأرهاق واضحا على .. كانت مديحة توقظنى برفق كانها كانت تفعل ما يفعله سكان جزر " فيجى " فهم يعتقدون أن الروح تفارق الجسد عند النوم بشكل مؤقت، وهم لا يوقظون شخصا نائما إلا للضرورة القصوى .. إذ أن الروح ربما تكون بعيدة آنذاك فلا تتمكن من العودة فى الوقت المناسب ، وإذا كان ولابد من ايقاظ الشخص .. فهم يفعلون ذلك تدريجيا ، حتى يعطوا للروح فرصة للمجئ .. ودخول الجسد مرة أخرى ، ويحكى أن أحد الأزواج كان نائما ذات مرة وكان يحلم

أنه على جزيرة أخرى وعندما أيقظته زوجته فجأة سمعته يصرخ مناديا روحه أن تعود عبر البحر ، وقرأت أن الفرد العادى ينفق ثمانى ساعات مستلقيا على ظهره غارقا فى النوم ، وعندما يصل إلى سن الستين يكون الإنسان قد انفق أكثر من عشرين عاما نائما فى الأيام القادمة لن أترك نفسى للنوم .. ليس أمامى وقت طويل يجب أن أظل مستيقظا طوال الوقت ، فقد تفارقنى الروح ولا تعود أبداً.

كانت قدماى قد ساقتنى إليه رغما ، حين رآنى تهلل بدأ كأنه ينتظرنى.. هرول ناحيتى كطفل صغير .

- كنت متأكدا أنك ستعود إلى هنا .. أنا أفضل من يعمل الشاى فى مصر .
- هذه المرة دعنى اختار من فضلك ؟
- أطلب ما تريد .
- قهوة .
- سوف احضرها حالا
- اسمع .. لا أريدها فى فنجان أريدها فى كوب .
- يبدو أنك خبير فى شرب القهوة .. كل الزبائن الذين يدمنون شرب القهوة يطلبونها فى كوب .....

تابعت من بعيد يديه لمرتعشتين وهو يضع الكنكة على النار ..كان رفيقا لها ينظر إليها يتلمس لحظة الفوران ، والذين يصنعون القهوة بإتقان يدركون تماما أن أهم لحظة يجب التركيز عليها وأعطاها كل الاهتمام هى لحظة الفوران ، فإذا كنت تريد أن تصنع قهوة جيدة فيجب أن تهتم بمتابعة القهوة هى فى الكنكة وإذا تلمست علامات الفوران فكن جاهزا .. حتى ترفعها فى الوقت المناسب وبعضهم يقولون أن رائحة ما تشتم عندما تكون القهوة جاهزة .

قلت بصوت مرتفع .

- هل رأيته ؟!
- نعم . .وأخبرته أنك سألت عنه.
- لكنك لا تعرف أسمى ؟!!
- لكنه يعرفك .. بعد أن وصفتك له بالضبط فإنا اعرف زبائني .. تمرست على ذلك سنوات طويلة.

صب القهوة أمامي وبعد أن اطمئن على كل شيء .. بدت علامات الرضا عندما رأها مستوية فى الكوب كما يريد .

- تذوق .. هذه القهوة ستعرف أنني أفضل من يصنع القوة فى مصر المحروسة .

- كيف حاله ؟!
- كان طبيعيا ،وعندما ما سألته عن سر غيبته طوال هذه المدة، قال .. إنه كان فى مأمورية تخص العمل ، الصحفيون يلزمون الصمت حين تحدثهم عن سر مهنتهم .. أما إذا حدثتهم عن السياسة فلا يكفون عن الحديث أبدا.

ضحك وبإدلته ابتهاجه بابتسامة خفيفة .

- هو يريدك .. ترك لك رسالة معى
- أين هى ؟!
- هنا

وأشار العجوز إلى رأسة .

- لقد حفظتها .. يبدو أنه يعرفك جيدا الأستاذ عزت فى انتظارك غدا فى نادى الصحفيين فى شارع البحر الأعظم .
- هل قال لك غدا ؟!!
- نعم يا أستاذ شحاتة .. معذرة فقد عرفت الاسم منه .. سوف أتركك تتمتع بشرب القهوة .

انسحب العجوز من أمامي ، فقد رأى زبائن يقدمون على الكافتيريا، كيف عرف عزت فهمى أننى سأحضر اليوم إلى هنا ؟! حتى يترك لى رسالة أن أحضر إليه غدا .. أخذت رشفة من كوب القهوة يبدو أن عزت حريص كل يوم على الذهاب إلى نادى الصحفيين ، هكذا فهمت وربما .. يقابل سمية هناك .. بل قطعا هذا هو مكان التقائهما .. لا أعرف لماذا خطر على بالى قول " ذو الرمة "

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

ضحكت ، وقلت كيف جعل ذو الرمة من زيارة فاطمة حبيبته أحد مناسك الحج من تركة كان عليه هدى ونقص حجة ، وذو الرمة يشبهنى ، فقد مات الرجل عندما أكمل الأربعين وقال

فلم أر عذرا بعد عشرين حجة

مضت لى وعشر قد مضين إلى عشر

وكان قد أحس وفاته قد قربت وعرفها ، وأنا مثله تماما فقد عرفت منيتى ، ورأيت أخر أيامى فى الدنيا .. أه لقد نسيت شيئا عظيما كيف لم أفكر فى ذلك من قبل ؟!!! لابد أن أصنع لنفسي

قبرا يليق بأخر رجال عائلة البحار .. لابد أن ارسل للعمدة والشيخ سيد ياسين لكى أطلب منهما ذلك.. أريد قبرا يليق بحفيد عائلة البحار .. قبر يتنماه كل ميت .. وينظر إليه الزائرون فى خشوع .. الأمر يحتاج إلى بعض الترتيبات .. مع العمدة ، وسوف اختار موقعه بنفسى وأزرع حوله الأشجار، حتى يستظل بها العابرون من أمامى وربما يقفون دقائق معدودة يقرأون على روحى الفاتحة .

أنا لم أترك حفيدا من بعدي .. لم أستطع ان أنجب لعائلة البحار من يأخذ لها البيعة كما أخذها معاوية لولده .. الناس فى البلد غاضبون ، ثائرون لذلك .. ولكن ما حيلتي ! ما حيلة شحاتة البحار ؟!!!ها هى فريدة المرص تضع نفسها تحت أمرك ، لتنجب منها الولد الذي يحظى بالشرف ، شرف عائلة البحار ويحمل علي كتفيه الفضل والرفعة ، وينال ما نلت من إحترام وحب ، وما ناله جده علي البحار من احترام الناس وحبهم .. وإذا مت ولم تنجب فلن يكون هناك ليلة لجدك وستضيع معك عائلة البحار .

فريدة ابنة المرص لا يصح أن تأتى بالحفيد .. لقد هجرت البلد بعد شائعات وشائعات.. كيف تعود إلهيم وفى يدها شرف نسبها إلى عائلة البحار .. نسب كالماس لا تخالطه شائبة .. المهم هو الولد .. الحفيد.. وليس مهما كيف يأتى ؟! أنه ابن عائلة البحار صاحب الليلة ، وسوف تفرح به إبهيت الحجر كلها .. بعد موتى

سيكون هو صاحب الليلة ، لن تقام إلا بحضوره، سيقف بين يدي العمدة وشيخ البلد ليشهد كل شيء بنفسه .. سيتطلعون إلى قسمات وجهة .. سيسمع الولد كلام الراوي عن سيرة جده على البحار ، وسيعرف كل شيء عن على البحار ، لكنه أبدا لن يعرف شيئا عنى أو عن أى فرد فى العائلة .. العائلة كلها على البحار .. الحاج على البحار هو الذي وهب هذه العائلة هذا الشرف ، ومنحهم هذا الفضل الذى يفتخرون به على سائر الناس ، وتتباهى به إبهيت الحجر على سائر القرى والبلاد المجاورة .. وجدى على البحار قدر فى حساباته كل شيء ، لأنه كان واسع الرؤية فقد اوقف عشرين فدانا لهذه الليلة .. وضع عائدهم فى يد العمدة وشيخ الجامع، هما اللذان يتصرفان فى كل النفقات ، هذه وصيته ، عائد الأفدنة لا تستطيع أن تأخذ منه شيئا لننفقه على أنفسنا .. مديحة حين عرفت ذلك قالت لى .. وهى تضحك أمام أبيها

- أنت ثرى مع وقف التنفيذ .. مثل ملكية بريطانيا ، تملك ولا تحكم .

أوقف جدى كل ما يملك من أرض على ليلته، ولم يترك لنا شيئا كنا نعيش مثلنا مثل بقية الناس ،ولو ترك لنا جدى الحاج على البحار كل هذه الأفدنة لكنا من الأثرياء .. ولم يكن لى حاجة أن أتى إلى هنا لكى اعمل موظفا صغيرا فى بنك .. حتى البيت الكبير

ذو البوابة الواسعة العريضة التى نقشت عليها كلمات جدى مرصعة بماء الذهب .. وإذا دخلت وجدت حديقة واسعة وعلى اليمين اسطبل صغير لحصان جدى .. وعلى اليسار مندرة للزائرين وعابرى السبيل والغرباء .. كان جدى على البحار كريما بلا حد .. ثم إذا دخلت إلى البيت الكبير وعبرت الباب الأوسط وجدت على يمين الداخل غرفة جدى وبجواها المصلى وبعدها مباشرة غرفة للكتب ولأشياء جدى الخاصة جدا، لا يمكنك أن تدخل هذه الغرفة أبدا، لن يسمح لك عم فضل بالدخول مهما أغريته بالمال أو بالكلمات الواسعة فى مدحه .. النوافذ واسعة زجاجية لا تسمح بمرور الضوء إلا قليلا.. النوافذ بعيدة عالية.. تتطلع إليها ببصرك ربما تشعر بالاقتراب منها ، أو أنه يمكنك ملامستها بيدك ،حين تصعد درجات السلم الخشبى العريض الذى يواجه الصالة الكبرى فى البيت ، هناك تصعد إلى الدور الثانى ،حيث لا يوجد سوى الفراغ الواسع وهمهمات الريح .. هكذا أراد جدى ان يكون الطابق الثانى بلا أبواب وبلا نوافذ، تسمع صرير الريح فى ليالي الشتاء وتشعر بشيء من الرهبة ، لا يمكنك أبدا مهما قيل لك أو عن شجاعتك أن تصعد إلى الطابق الثانى .. سيتملكك الرعب وتأخذك الرهبة وتمنعك نفسك عن المجازفة ستسمع حديثا عن الحيات والثعابين التى تأتى إلى الطابق الثانى وربما ترى رأس الشيطان

التى تشبه مرضعة "فرانكشتين ".. وحتما حين تنصت جيدا ستسمع انين جدى الذى يتردد حتى الآن فى الجدران القديمة،. سوف لا ترتاح إلى ما يقولون لكنك ستصدق حتما ان هناك خفافيش تحلق كل مساء حول الطابق الثانى وإذا تسللت بنظرك إلى فوق فسوف لا تجد سوى الفراغ المخيف .

الوحيد الذى لا يأبه بكل ذلك ويصعد إلى هناك هو عم فضل، ولا يصعد إلا ليلا دون ان يحمل مصباح فى يده ، سمعت الشيخ ياسين يقول .. أنه ربما يصعد ليقدم الطعام للزائرين من المخلوقات الأخري التى تطوف بالبيت صباحا ومسارا ، قال انهم حراس ، وقال ربما يكونوا جنودا .

لم أفكر أبدا فى الصعود ،ولم أندم على أننى لم اصعد إلى الدور الثانى أبدا ، إنه ضرب من الجنون أن تصعد إلى المجهول إلى الخوف نفسه.. الشي الوحيد الذى غافلت فيه عم فضل ودخلت إليه هو حجرة جدى كان عم فضل يرفض أن يدخلها أحد بعد جدى .. يقول أنه لا يجب أن يفتح الباب فتضيع أنفاس الرجل الأخيرة التى ضمتها هذه الجدران .. أنفاس كلها بركة وفضل .

وضعت كلام عم فضل جانبا ،ودخلت ، حالة من الخشوع تملكتنى .. أرهقت بها .. تصببت عرقا انتقلت من مقام إلى مقام .. كنت أحس بأنفاسي ساخنة.. قلت ما قال أدونيس

الأشــياء

حبلى بالأشياء

المصحف .. مسبحة ..عمامة جدى .. كأنه وضعها عن رأسه الآن .. كنت أرى شيئا يشبه الدخان يتصاعد .. تتمدد أدوات الكتابة .. القلم ، المحبرة ، قرطاس مطوى بعناية ، كتب موضوعة على رف صغير .. تندفع قدماى إلى الخلف حيث الباب .. أخرج كأنني لص فزع .. جريت مسرعا حتى وقفت عند حوض الماء الكبير بالقرب من المدخل .. لم أعد إلى هذا الفعل أبدا.. قررت ذلك ... حين هبطت من السلم العريض واجهت الممشى على اليسار ، كان ظهره لى ووجه سمية أمامى ، كانت خصلة من شعرها الأسمر تتحرك على جبهتها ، تنظر إلى عزت كأنها تنظر إلى فضاء واسع لا ينتهى أتاني همس عزت فهمى ، كأننى سمعته يردد قول " لوركا الأسباني "

ما الإنسان دون حرية يا ما ريانا ..؟

قولى : كيف استطيع أن أحبك

إذا لم أكن حرا

كيف اهبك قلبى إذا لم يكن ملكى ؟!!

كأننى أشاهد دمية صغيرة تتحرك بينهما .. كان كما تركته فى عتمة السجن .. حين نزعه الحارس من أمامى .. كان مشرقا بحزن .. أما سمية فكانت ترتدى بلوزة بيضاء على بنطلون جنز أزرق وتمسك بسلسلة يتدلى منها رأس تمثال الحرية .. لم أشك لحظة واحدة انها سمية .. نعم صوت فيروز كما شبهها عزت فى السجن ، جالسة أمامه كقطعة من جمال باريسي أو صورة رومانسية بديعة يستخرجها الناقد من قصيدة لأحمد ناجى.. بدت مشرقة ككل كتب التراث التى قرأتها. . أحس عزت بوقوفى خلفه ، نظر إلى الخلف فجأة .. وارتمى فى حضنى سقطت كل كتب السياسة من يده ومضي فاتحا ذراعيه لى وبلهجة ساخرة نظر إلى سمية

- زميل الزنزانة .. الأستاذ شحاتة البحار . . لقد حدثتك عنه ..

ارتفعت هامتى قليلا بعد أن جلسنا على الطاولة ، طلب النادل ليحضر لى مشروبا وقبل أن أتكلم قال ضاحكا

- قهوة فى كوب وليست فى فنجان .

حدثنى بارتياح عن أشياء كثيرة فعلها بعد خروجه من السجن وسألنى مندهشاً .

- وأنت كيف خرجت ؟!!

- فتحى أبو شنب .. اعترف عندما واجهه المحقق بأن توقيعى مزور
- مبروك
- وأنت كيف خرجت ؟!
- كما قال لى مأمور السجن حين استداعنى لمكتبه، قال بلهجة عسكرية .. هذه قرصة أذن لك حتى تنتبه.

تراجع بظهره إلى الوراء،مستندا على جانبي المعقد ، فاتحا صدره للهواء كأنه لم يشبع من أشيائه الخاصة بعد ، كان يبدو قلقا كقائد عسكرى منهزم . فرك يده وأمسك بدمية سمية وضعها فى كفه وقبض كل أصابعه عليها كمحاولة لاستخراج مدينة ميتة، ابتسم بمشاعر منهكة وقال فجأة .

- هل تعرفان قصة الرجل الذي ادعى النبوة على عهد المأمون ؟

هزت سمية كتفيها بالنفى ، أما أنا فلم أجب .. أكتفيت بارتخاء صامت لشفتين لا تفجران أسئلة ذات أهمية .. أخذت رشفة قهوة .

- عندما أحضر المأمون الرجل مدعى النبوة ليستجوبه وليستمع منه بنفسه .. ألتمس منه

الرجل مدعى النبوة أن يصحبه بضع خطوات ليري مشهدا رائع الدلالة .. ومن شرفة مرتفعة وقف مدعى النبوة وبجانبه المأمون .. وأومأ الرجل إلى أحد أتباعه فرفع الستارة .. وإذا بقطيع من الناس يربو على المائتين يخرون راكعين عندما شاهدوا مدعى النبوة التفت الرجل إلى المأمون وقال له : رجل يجد هؤلاء الرعايا المطيعين ثم تستكثرون عليه النبوة ..؟ إنى استحق الشكر لأنى تواضعت ولم أنصب نفسى إلها ...

إنطلقت منى ضحكة مبتزلة أما سمية فأخرجت علبة المناديل وسحبت واحداً بسرعة ووضعته على فمها وظل عزت صامتا مثل المدن الحجرية التى وصفها أبو سنه .. قلت فى صفاقه

- كنت أظنك تهمس فى أذن سمية بكلمات الحب ، لكنك لا تكف عن الكلام فى السياسة .

وحدث سمية فى حديثى فرصة للنيل من الصحفى المشاغب

- لا أعرف من يحب أكثر أنا أم السياسة ؟!

أجبتها سريعا

- بل لا أنت ولا السياسة

- من ؟!

- السادات .

تراجع عزت فهمى إلى الوراء من كثرة الضحك وسألنى بقوة

- هل تمانع أن تأتى سمية معى إلى ليلة جدك على البحار

ألقانى الملعون فى بحيرة ساكنة خالية من الطيور والناس .. مثلى مثل الذين يتصارعون على فراء الدب قبل إصطياده ، لم يكن بوسعى أبدا أن أرد على ما قاله .. كانت الدموع التى تقع مرغمة قد تولد الآن فى عينى ، ولولا مراوغتى إياها حتما ستسقط أمام سمية ، ستسقط كجثة عامل اهتزت قدماه على السقالة فسقط .

أشار عزت لسمية ، وعندها وقفت ، ووقف بجوارها ، بينما ظللت جالسا .

- سأوقف تاكسي لسمية ، وأعود إليك حالا ، يجب أن تعود إلى بيتها ، الوقت تأخر .

أدرك عزت ما ألم بى ، لابد أن أصارحه بكل شيء ولن أصمت ، عزت سيفهمنى ، سأقول له أن الأيام الباقية لى فى الحياة

قليلة ، ولأبد أن أنجز كل شيء .. الولد هو أهم شيئ يجب أن أفكر فيه ، أما عن حديثى فى رغبتي فى أن أكتب ديوان شعر أتحدى به النقاد فلم يعد مهما الآن ، ربما يتوارى قليلا ، وربما لا أكتبه أبدا ، الشعر ليس مهما ، لقد قرأت مقالاً يقول فيه الناقد " ما جدوى الشعر " .. لم تقوم لعائلتي قائمة إذا لم أنجب الولد الأن .. عزت أنت تفهمنى أو حتما ستفهمنى أمامى خيارات كثيرة .. لكن لا وقت لى .. أفهم أن مديحة هى التى تأتى بالولد لعائلة البحار .. أنا مهدد بالموت فى أية لحظة .. هل تقول أن القاعدة لها شواذ .. هذا كلام النحويون يا صديقى .. إنهم يستثقلون أشياء .. ربما أحس بتعاسة تقترب من حلقى .. وفريدة التى ألقت خجلها ، وصعدت السلم حتى آخره .. تدلت كحبل مجدول .. تمسك بكتفى .. فريدة أبنة المرص تريد أن يرث ابنها عائلة البحار ، تريد أن تعود إليهم بخطيئة ولا يستطيع أن يرميها أحد بحجر ، تريدهم أن يحملوها فوق المحفة مثل " فيا " .. أعرف أنه عندما يأتى الولد ستنتهي سيرتى بين الناس ، سيلتفون إليه .. سأكون مثل حجر صلد فى قاع بحيرة ساكنة .. لن يقرأ أحداً أسمى فى جريدة يويمة واحدة .. ولن تعرف القاهرة شيئا عن وجودى .. لن يخبرها أحد عنى ، ستظل مثل الغول الذى يظهر فى كتب الأساطير يأكل المارين عندما لا يجب أحد على سؤاله .. وعندما أموت سيضعونى فى قبر مهجور ،

لا تصل إليه قدم .. قبر جدى فقط هو الذى يعرفه الجميع ويلتف حوله الناس أما قبري أو قبر أبى فلن يزرعوا عند قدمى شجرة واحدة .. الآن فقط أشعر بالبرودة التى يشعر بها جسد أبي ، أحس بالمهانة التى يشعر بها جسد مهجور فى فبر بعيد لا تحضر إليه الإ قدم تائه أو غريب ضال ، أتفهم الأن ما يحدث لجسد يتمزق عشرات المرات وهو يرانا ويعرفنا لكننا لم نره .. هل تعرف وجه أبي يا عزت ؟!! لم يزرنى فى نومى أبدا ، أبى لا يستطيع أن يخرج من قبره أبدا للتنزه وقضاء أوقات لطيفة.. روحه تلفها أفكار سوداوية ، أفكار مثل النقاد البلهاء أو بعض السياسيين الحمقى ، أفكار لا تستطيع أن تتحرك مثل جنين ، لا تستطيع أن تمرح مثل الأطفال فى الحدائق .. أفكار ليس لها رأس أو معدة أو قدمان .. تبدو كمخلوق مشوه .. هل تفهمنى يا عزت .. ؟!!

أنا عندما فكرت أن أكتب شعرا .. كنت أبحث عن شيء يأخذ يدى .. يمنحنى حرية لا يعرفها فقهاء السياسة .. الحرية التى يكتبون عنها فى الكتب ليست هى .. الشعر الذي كتبته ومزقه الناقد هو ما كنت أقصد .. الشعر الذي أريده هو كائن مثلى يرتدى البلطو الصوف فى الشتاء ليحتمى من البرد .. يدخن مثلى ويكون شرها حينما لا يجد نقودا فى جيبه تكفى لقضاء سهرة مع مديحة .. الشعر الذي أريد أن أكتبه يا عزت كائن مثلى – كما قلت لك –

يذهب إلى مطعم "جاد" حين يجوع ويشرب القهوة فى كوب وليس فنجان ، يلتقط أنفاسه حين يشعر بالتعب ، وجه فريدة المرص جميل مثل تمثال بارد .. ليس متوهجا كصباح جديد تمنحك مديحة رؤيته كلب يوم ، فريدة قلقة مجهدة .. تتنفس كميت .. ستقول لى إن ذلك لا يمنعها من أن تنجب الولد الذي تطلبه .. نعم أصدقك يا عزت وأنت تفهمنى جيدا .. لكنك ككل السياسيين لا تقع أعيونهم إلا على تمثال الحرية فى أمريكا .. تتخيلون أشياء ساذجة .. الحرية لا يمكن أن تكون فى تمثال أبدا الحرية كائن خرافى لم يولد بعد .

(٤)

.....

...

كـأن شيطان بليد ينزع ملامح وجهى
لا أحتمــل كـل هـذا الســقوط

إنها لا تريد أن تصل إلى شيء ، ولا أن يصل إليها شيء ، لا تريد أن يفض خصوصيتها أحد أو أن يعبث بأشيائها الداخلية .. فريدة المرص تنتظرها كل يوم كأنك تنتظر مجئ " جودو " إنها المرأة التى لن تعرفها أبدا .. مغرقة فى انزاوائها وتقدسها لجسدها .. تتلمس حدوده وتفاصيله .. قطعة .. قطعة .. كل ليلة ترتمى فى حضنك كأنها امرأة مصروعة ، تريدك أن تخرج الشيطان من جسدها ..

منذ أن تزوجت فريدة وأنا أحضر إلى شقتها فى العمارة ذات الشعرين طابق ، كان يعنى لى الارتباط " بفريدة المرص " أنك خنت كل العلاقات ، أنك أصبحت مستباح الجسد ، وأنك

وصلت بالحماقة إلى أخرها ، وأنك قد أدركت هزيمتك أمام نفسك .. لن تصلح الأيدلوجيات مجتمعة فى ترميم الجسد المهتئ هذا العرق الذي يتصيب كل يوم منك .. عندما تخرج من عزلتك وتنفتح على عالم فريدة المرض .. عالم مختلف لم تعشه من قبل لا هنا ولا فى ابهيت الحجر ، فريدة استطاعت أن تجمع عالمين فى جسدها .. أبدو غير راض عن نفسى ، ولكنها صرخة أطلقتها فريدة فى وجهك وأزعنت لها .. كرست رغبتها .. قطعت كل المسافات بخطوة واحدة حتى أصبحت بلا مسافة تفصلك عنها .. راجعت مكياجها ودلال الأنثي .. ماهرة هى فى وضع زينتها لتجعلك أكثر ازعانا .. وأمام غريزتك المنحطة نسيت القضايا الكبري ، وتفاصيل حياتك مع مديحة .. لا جدوى من افتعال السعال الأن .. بعد أن قذفت كلام عزت فهمى من شباك شقة فريدة .. قذفته وأنت تلهث .. رميته من أمامك حتى لا تراه قابعا ينظر إليك فوق فوتيه غرفة الصالون .

هذه الحياة فانية .. باطلة ، ما جدوى الاحتفاظ بالأشياء الثمينة .. ما جدوى التذرع بأفكار بلهاء عن الخيانة والحب ، وأنت مقبل على نهايتك .. عامان فقط يفصلانك عن تلك النهاية .. ماجدوى أن تنخرط الأن فى بكاء صامت مثل الذى بكيته يوم أن

حضرت إلى الأتيليه وقال لك الدكتور وهو يضع نظارة سميكة حول عينيه .. كان يتأفف مما تقول ..

- يابنى .. لن تصلح أن تكون شاعرا .. لديك ذائقة جيدة .. استعملها فى القراءة .. ستكون قارئا جيدا للأدب .

بدأ الدكتور الناقد وكأنه يمسك بمسدس محشو يوجهه نحو رأسى ، انطفئت كل الكلوبات فى رأسي .. انصرفت عن متابعة الأتيليه .. ولم أعد أتعلق بحضور الندوات .. عكفت على القراءة .. حتى عندما ذهبت إلى شقة فريدة أخذت بعض الكتب معى .. لكن فريدة لم تمهلنى لكى أصنع شيئا ذا قيمة

- أريد أن نسرع فى الإنجاب .

وحين أقبلت ذات يوم متهللة وقد أحضرت معها فستانا أنيقا وأشياء أخرى كثيرة ، ذهبت إلى الكوافير وسوت شعرها ، وضعت مكياجا كثيرا حول تفاصيل وجهها فجعلها أكثر تحديدا .. قالت بعد أن وضعت قبلة بين عينى ورمتنى بنظرة سرت خلفها .. قالت وهى تضغط على حروفها ..

- ما كنت أريده حصل .. أنا حامل . هل تصدق أن كل شيء تم بهذه السرعة ؟! حفيد عائلة

البحار ينمو الأن بين أحشائي هكذا أخبرنى الطبيب بكل ثقة

كل ما كنت أريده الأن .. أن أرى عزت فهمى عارضت كثيرا حين صارحته برغبتى فى الزواج من فريدة المرص .. قال كلاما كثيرا عن الحب ومديحة ، اختلفنا من ساعتها ، صرخت فى وجهه وقلت :

- أن كل الأفكار والأيدلوجيات التى فى العالم لا تستطيع أن تقدم قطعة خبز لرجل جائع .

كلماتى كانت تنغرس فى لحمه .. تألم وصرخ .. لم يعرف عزت فهمى ما بي .. أنا أحتاج إلى ولد .. البلد كلها تنظر .. والقدر لن يمهلنى .. لا أعرف لماذا ساعتها كنت أريد أن أرتمى فى حضن مديحة .. مديحة لم تطلب الطلاق .. كانت أكثر رحمة بى من عزت أحست بشيء داخلى لم يشعر به أحد .. مديحة كانت تقرأنى كالكتاب المفتوح .. كنت فى حاجة أن أقف أمام خجلها ، أن أردد أمامها أنشودة المطر التى قالها السياب

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

هذا هو السياب الذي لم يعجب النقاد ، كان واضحا .. وكان شاعرا ، ماذا يمكن أن يفعل السورياليون حينما أرتعدوا كالأطفال بعدما قتلوا كل أبائهم وراحوا يبحثون عن أبٍ جديد .. مثل حكاية الأبن الشاطر فى التوراة .. الذي عاد وفى قلبه ندامة وتوبة دينية .. البريق الذى رأيته فى عيني فريدة المرص كان كطوق النجاة وهو يغوص فى عمق الكحل الأسود فى العينين اللتين لمعتا فى ذلك المساء الذي أجتمعت له كل النجوم فوق رأس عمارتنا الشاهقة .. مضت فريدة المرص سعيدة بانتصارها .. وحلمت بعودتها إلى إبهيت الحجر وهى تحمل لهم الجنين الذي سيحول حياتهم إلى سعادة .. ستقولى لهم كلمات عن قدرها ، وكلمات عن فضلها فى هذا المولود وكلمات أخرى عن أنها أصبحت كل شيء ، ستقول يجب أن تخجلوا منى حين خرجتم خلفنا ذات صباح مشوس بحكايات خرقاء عنى وعن أمى ، رددتم كلمات سخيفة مثل التى قيلت فى خطاب التنحى.. من يستطيع أن يضبط عقارب الساعة الأن ، ويضع الوقت الصحيح .. قالت لى فريدة ذات مساء ونحن جالسين ..

- لن يسألنى أحد عن شيء طالما أحمل لهم هذا الجنين ، أنا أعرف أهل أبهيت الحجر جيدا ..

المرأة الجميلة تستطيع أن تفعل ما تريده .. وإذا حالفها الحظ ووجدت فى طريقها شحاتة البحار فقد أعطاها القدر ما تتمنى .. لم يكف عزت فهمى عن إيلامى كلما التقينا .. لماذا لا تتصور أن التقائي بفريدة المرص هو نوع من العبثية التى كان يقصدها " برخت " فى مسرحياته.. الفوضويون يعتبرون التخريب والإلغاء والتدمير وحتى القتل ؟!! أجمل لحظات الحرية .. ربما الفوض التى اجتاحت حياتى فجأة وجعلتنى أهجر مديحة وأتزوج فريدة المرص ، وأن أقترب من نهايتي دون معنى.. أن أدخل السجن .. اللحظة المفتوحة التى رأيت فيها العالم بوجهه القمئ يضغط بك أقدامه وحضارته وأفكاره الثقيلة على عزت فهمى لكى ينهش لحمه .. كيف تحولت اللحظات الصغيرة التى تراكمت لحظة فوق أخرى لتصبح فى النهاية ركاما من لحظات .. ركاما من زمن يتسع لحديث طويل ويكفى لكى يصنع ألفة بين كائنين بعيدين .. القتهما يد فى زنزانة رطبة ذات سقف منخفض .. وفوق رأسهما شباك صغير يطل منه بصيص نور لكنه يقتحم الظلمة الراكدة .. أى لحظة قاتلة فزعة مرتعشة حين رفعت سمية هاتفها وأدرات القرص وطلبتنى .

- قبضوا على عزت يا أستاذ شحاتة .. اعتقوله .

أمثال عزت فهمى كثيرون كالعناكب ينسجون النسيج من أجوافهم .. لعن الله السياسة التى تأخذ الأصحاب إلى الزنازين البعيدة حيث الوحدة والصمت .. كنت مستعدا أن أموت الآن .. لماذا عدت يا عزت إلى السجن بمفردك ؟!! لماذا لم تأخذنى معك ؟!.. هل ما زلت لا أصلح لذلك ؟!! .. هل يمكن أن تنسانى هناك فى القعر المظلم حين تلتقى بأخر غيري ، وتتواصل الكلمات بينكما .. لتصنعا سويا شيئا مشتركا .. هل ستحدثه عنى أم ستكفى بحديثك عن سمية وعن السادات ؟! . هل ستقول له نفس الكلمات التى رددتها أمامى ؟! هل ستخرجان من السجن صديقين ؟! لا أصدق أنك ستفعل هذا أبدا لا يمكن حتى أن أتركك تفعله ..

قررت أن أذهب إلى سمية ، وأن نعمل سويا لكى نحصل على تصريح بزيارة عزت ، فى البداية كانت الأبواب كلها مقفلة .. لا أحد يسمعنا .. كل ليلة كنت أذهب إلى نادى الصحفيين، أجد سمية جالسة مكانها تتعلق عيناها بالباب .. ربما تظن أن القادم هو عزت فهمى .. أعتدت الجلوس أمامها دون حديث .. هكذا كنت أراها ، وجه صوفى يتألق فى عزابه .. يضغط الحزن على الأنف المدبب وعينين تشردان فى لاشيء ، مثل وجه الملائكة المرصع بالذهب تبدو سمية .

لاحظت تطفلى .. تلم خجلها أمامى حين تعبث فى سلسلة المفاتيح ورأس تمثال الحرية الصغير ، تخرج علبة المناديل وتهم بالحديث مرات عديدة فلا تجد غير كلمات مكررة ميتة.

- هل سنحاول غدا ؟!
- لن نكف عن المحاولة .. يجب أن نراه .. هذا حقنا .
- أنت صديق مخلص .
- ليس لى صديق سوى عزت .
- رغم أن علاقتكا ليست منذ زمن بعيد .
- طول الزمن لا يهم .
- كيف حالك مع فريدة ؟!
- حصلت على كل ما تريده منى .
- ومديحة ؟ !
- شيء أخر ... الوقت تأخر هيا لكى أوقف لك التاكسي .
- ألا تلاحظ .. أنك تفعل كل ما يفعله عزت معى ؟!!

صعبة جدا تلك الكلمات إلى ألقتها فى حجرى تواً .

- أنا أسفة لم أقصد .

- لا شيء ، هيا بنا .

ظللنا عدة أسابيع كل يوم نمر على المكاتب . طرقنا كل الأبواب .. سمحوا لنا أخيرا بزيارته وحددوا لنا الموعد فى التساعة صباح الغد .. كنت أنا وسمية فى أول الطابور .. طابور الزيارة الطويل .. الذي كانت تقف فيه مديحة .. الوجوه التى تتطلع إلى لقاء الغائبين تبدو غير مهتمة بما يدور حولها من تحركات العسكر وكثرة الأوامر التى تلقى هنا وهناك .. إذا لم تكن مصرا فلن تصل .. أخيراً نطق الحارس أسمائنا .. كنا فى الرابعة عصراً .. قال وهو يدفع أجسادنا بقسوة داخل الغرفة، مكان الزيارة ..

- أمامكما خمس دقائق فقط .. لن تزيد .. يجب أن يتم كل شيء فى خمس دقائق .

مضينا فى الطريق المرسوم لنا بعناية وبحذر .. لم نره .. كان كائنا أخر متكوماً فى ركن الغرفة.. كان كالحا ومهترئاً .. الوجه شاحب .. عظام الوجه تبرز فى نفور .. كانت أنفاسه ترتفع وتنخفض .. يشهق بسرعة .. كنا قلقين عليه .. مرت لحظة من الفتور .. بسرعة ارتمى فى حضنى ، ضممته إلى صدرى ترى ماذا فعلوا بك هذه المرة ؟! لماذا تركتهم يوقعون بك ؟ كانت كلماتك التى كتبتها أخيراً قاسية عليهم .. هذه البلاد لا تستحق مثلك ، إنها تريد أمثالى – وهم كثيرون يا عزت – حين تعلقت به سمية .. رأيت

يده غير قادرة على حملها .. كانت سمية تنهار .. بكاء ملعون وكلمات بلهاء .. هى كل ما نملك نقدمه لمن نحب .. المشهد خان الجميع ولم يعد الكلام مناسبا، الكل انخرط فى أنين ونشبح لا ينقطع ، انتهت الزيارة لكن بكاء سمية لا ينتهى أبداً ... قالت وهى تدق على المنضدة بيدها فى قوة ..

- يجب أن نفعل شيئا من أجل عزت .. يجب أن نخرجه من هنا سيموت إذا استمر على ما هو فيه.

حسبتها قوية عندما قالت ذلك مضينا فى المساء إلى أحد مكاتب المحامين .. قصدماه بعد أن عرفنا مهاراته فى مثل هذه القضايا .. بعد انتظار طويل جلست أنا قبالته وجلست سمية بعيدا.. حكيت له ما حدث مع عزت وكيف أنهم أخذوره وهو الآن معتقل بلا سبب .. ورويت له المنظر الذي رأيناه عليه فى أخر زيارة .. كانت ملامح الرجل محايدة وإن بدا عليه شيء من التأثر وسأل ..

- هل هذه زوجته ؟!
- خطيبته
- وأنت ؟!!
- صديقه

- أسمعا جيدا لما سأقوله .. لن أشغلكما بالحديث فى القانون ، يمكن أن نلجأ إلى المحكمة القانون يجيز ذلك ، والقضاء حتما سيأمر بالإفراج عنه ..

كان شيء من الانتباه قد عاد إلى سمية ، وقفت واقتربت منه ، لاحظ الرجل هذه الحياة الخفيفة التى دبت فى أوصالنا ..

- لا تفرحا هكذا .. الأمر ليس بهذه البساطة .. فى بلادنا الحكومة تتحايل على هذه الأحكام التى تصدرها المحاكم ..

صرخت مقاطعا :

- كيف يا أستاذ .. الحكم الصادر من المحكمة – كما نعلم – واجب التنفيذ ؟!!
- نعم كلامك صحيح ، هذه فى القضايا العادية .. أما فى قضايا أمن الدولة والسياسة مثل التى فيها الأستاذ عزت فهمى لن تدعه الحكومة يخرج ، سيقومون بإجراءات الإفراج عنه على الورق فقط ، وفى اليوم التالي سيعدون له أمر أعتقال جديد ، وستضحك الحكومة ساعتها وتقول لنا هيا احصولوا على

حكـم جديـد بـالإفراج علـى أمـر الاعتقـال الجديد وهكذا ..

- الأمر يبدو عبثياً !
- هو كذلك .

نطقت سمية فزعة من كلام المحامى .

- وعزت هل سيبقى هكذا فى المعتقل ؟!
- الأمـر كمـا حكيـت لكـم .. لا أريـد أن تـضيعا وقتكما فى المحاكم .. لا شيء يجدى ؟...

عندما انصرفنا من مكتب المحامى ،كان مساء أسود يولد فوق رؤوسنا فى تلك الليلة ، بدت سمية مجهدة ، وبدوت كمن يقاوم تنيناً بثلاثة رؤوس ، ليس امامنا إلا الاستسلام .. عزت فى قبضة قوية .. لن يخرج من هناك إلا بإرادتهم .. تركت سمية أمام باب شقتها .. هبطت درجات السلم مسرعا.. كانت الشوارع فارغة من الناس ، وقد هم المتسكعون بالنزول .. كنت فى حاجة إلى كوب من القهوة .. مضيت إلى العجوز .. كأنه كان فى انتظارى .. وقد أعد أسئلة كثيرة، وعندما أدرت وجهى عنه .. تراجع . . لم اجلس قبالته كالعادة ، بل أخذت ركنا قصيا حتى لا أواجهه حمل كوب القهوة فوق صنبية استالس واتجه ناحيتى .

- هل سمعت ما قاله نجم.. أنا اتابع هذا الرجل وأقرأ له

هززت رأسي بالنفي .. لم أكن اتابع نجم حقا .

- احنا الشغيلة عرايا جياع - على قد ما ضاع من العمر ما ضاع - لكن قررنا بالإجماع- تغيير العالم والأوضاع .
- كلام مثل كلام الشيوعيين المصريين . !
- السادات قبض على كثير منهم مثل مصطفى درويش وزكى مراد ونبيل الهلالى وغيرهم .
- هل تعرف كيف سخر نجم من النظام لما قبضوا على نبيل الهلالي المحامى . ؟!
- قلت لك أنا لا أتابع أعمال نجم !
- الهلالي لما قام - قلعوه روب المحامى - لبسوه روب الاتهام

أكمل العجوز .

- هذه المرة سيكون الأمر صعبا على الأستاذ عزت إنهم يبيتون له النية.

بعد أخر رشفة من كوب القهوة ، لم استطع الانتظار.. كانت نداءات العجوز خلفى تضيع هباء .. وأنا ماض فى طريقى ، لم

استطع البقاء ، والرحيل هو الحل الذى بدا أمامى طائرا يلوح بعد أن ضيق العجوز الخناق على ، أدرت وجهى ناحية مديحة .. فريدة المرض لم تعد تريدنى بإلحاح، حصلت على ما تريد منى .. ثم أننى قصرت فى الأيام الماضية فى حق مديحة ، أهملتها ، دلفت من باب الشقة ، كان كل شيء فى مكانه.. لم يتغير شيء لدى مديحة ، لم تكن تميل أبدا إلى تغيير حياتنا ، ولم يكن لديها الاستعداد لبذل جهد لتغيير شيء بسيط .. الشقة منذ زواجنا وحتى الآن لم يتغير فيها شيء .. لديها ألفة ما الأشياء

– أن كل شيء هنا يذكرنى بأمر ما حدث بيننا ..

هل تذكر تلك اللوحة .. كيف اشتريناها سويا؟!

تلك المرأة تنغرس فى داخلى تملأنى حتى النخاع .. نائمة فى سريرها مثل ملاك أبيض على الكمودينو كتاب " ثقافتنا فى مواجهة العصر ".. بعض الأوراق المبعثرة ، قلم حبر.. علبه سجائر ممزقة ، زجاجة دواء لا أعرف اسمه ، إيشرب رمادى يتدلى من فوق طرف السرير .. وصوت موسيقى خفيف ينبعث من المزياع ، أوراق كوتشينة مبعثرة فوق السجادة ، جاكت أزرق ملقى على حافة السرير .. حين اقتربت ، لسعتها انفاسي الساخنة .. انتفضت كأن سكينا انغرس فى عظامها ، فتحت عينيها وأغمضتهما سريعا فى مواجهه الضوء .

- لماذا جئت .. ؟ فريدة طلبتك فى الهاتف .

قاطعتها .

- أنا لا أريد فريدة ، أنا جئت إليك . . أريدك يا مديحة أن تعرفين ..
- اسمعنى جيدا ، فريدة حملوها إلى المستشفى .. يبدو أن فى الأمر شيئ .. يجب أن تذهب ..

كنت أحسبها تحاول ابعادى عنها فقط ، لم أنزل سريعا إلا بعد أن تأكدت انها تقول الصدق ،.. هرعت إلى المستشفى ، كانت فريدة المرص ترقد هناك فى غرفة العمليات ، والأطباء حولها يحيطون سريرها ، وأنفاسها تعلو ونهبط ، امسكت بالممرضة التى خرجت على عجل.

- ما الأمر ؟ أنا زوجها .. ماذ حدث لفريدة ؟
- سيكون الأمر على ما يرام .. اطمئن .

تركتنى ومضت ماذا حدث (لفريدة) .. تركتها .. كانت طبيعية وبصحة جيدة ، كانت سعيدة بجنينها .. هل تعرضت لحادث سطو ؟ ! الأمور فى البلد هذه الأيام غير مستقرة .. إعلان الأحكام العرفية .. الشوارع فارغة .. ارتفاع الأسعار الذى جاء فجأة.. وجعل الناس تهب فى وجه السادات .. لماذا لا يتحولون إلى

لصوص يخطفون كل شيء ؟!! بصعوبة بالغة وصلت إلى هنا .. السادات نعت مليون مواطن وفقا لتقديرات وكالات الأنباء العربية وليس راديو موسكو فقط بأنهم حرامية ! .. قالت الهرام .. أن هذه الانتفاضة اندلعت فى القاهرة وفاقوس والبدرشين والسويس ومدينة قنا ومدينة المنيا وشبرا الخيمة.. رأيت بنفسى بعض ما حدث .. لم يأت العنف من الجماهير ، ولكنه جاء من الحكومة ، الحكومة هى التى بدأت ، حين تدافعت قوات كبيرة من الأمن المركزى على الشوارع ، وأخذت فى تفريق المظاهرات الحاشدة .. مستخدمة الهراوات الغليظة والقنابل المسيلة للدموع .. دافعة الناس عن انفسهم بالحجارة .. تصاعد عنف رجال الأمن ، وبدأ أطلاق الرصاص على المتظاهرين وبأراقة الدماء .. ومع مطلع يوم ١٩ يناير ، عادت المظاهرت على نطاق أوسع ، وبصورة أكبر حدة ، مجتاحة كل أحياء القاهرة ، وهو ما سمعت أنه حدث فى الأسكندرية أيضا ، والعديد من المدن المصرية الأخري ، وبدأت أعمال التخريب وظهرت فى الساحة جماعات كثيرة استغلت تلك الهبة ، واندست بين الناس وقامت بمعاونة بعض الصبية والمتشردين بأعمال النهب وإشعال الحرائق وتحطيم المحال التجارية ووسائل المواصلات والعربات .. والعجيب أننى لا حظت اختفاء رجال الأمن عن كل المواقع وكانها تعطى الضوء الأخضر

للمخربين .. كنت احكى (لسمية) وهى جالسة أمامى على الطاولة لا تحرك ساكنا ، كانت فى شرودها أجمل من كل كتب الحداثة والبنيوية ، حين احضر النادل القهوى .. تابعت يده التى تتحرك فى ألية اعتداها الرجل من كثرة عمله .. كان بطيئا بعض الشيء لذا لفت انتباهنا .. عندما شعر بنا ، وضع كوب الماء بعصبية وانصرف .

منذ أن اتصلت بى فى الهاتف وقالت بصوت مكتوم .

- اسمع يا شحاتة .. هناك خبر لن تصدقه.. عزت مات فى السجن .. هل تسمعنى ؟! لم يعد هناك شخص تعرفه أسمه عزت .. ارجو أن تصدق ذلك ..

أحاول قدر استطاعتى أن انسي وقع تلك الرماح التى شقت صدرى ساعتها ، وبدأ أن الرأس تطفح من كل مكان .. بدوت كمن يسقط فى فراغ دائم ، لا أحتمل كل هذا السقوط .. وكأن شيطان بليد ينزع ملامح وجهى .. لماذا أصروا على ذبح عزت ؟!! قالت سمية إنهم احضروا جثمانه ليلا دون أن يشعر بهم أحد ذهبوا أولا إلى قسم الشرطة، وهناك أرسلوا فى طلب خاله مدرس التاريخ .. امسكوه بعنف .. ووقع على أوراق كثيرة قدموها إليه .. لم يقراءها .. نظروا إلى توقيعه فوجدوه مرتعشا طلبوا منه أن يوقع

ثانية بخط واضح .. بحروف لا تقبل التأويل أو المناقشة .. طلب الرجل أن يراه .. يراه فقط قبل أن يضعوه فى التراب ، رفضوا .. قالوا له أن مهمتك هو أرشادنا على قبر عائلته وسندفنه بهدوء ، لا نريد ان يحضر أحد الجنازة الحكومة اعدت كل شيء .. الكفن ، الجنازة .. كلها على نفقة الحكومة .. لم يسأل الرجل عن سبب موته .. لكنهم قالوا له أنه مات نتيجة أزمة قلبية حادة.. أطلعواه على أوراق كتبها طبيب السجن فى تشخيص سبب الوفاة.. ألقوا جسده فى قاع القبر .. وأخذوا يسدون عليه بالطين والحجارة ، وضعوا طينا كثيرا ، كانهم كانوا يخشون خروجه من جديد ..

- مددت يدى وأخذت الرشفة الأولي من كوب القهوة ، كانت ارتعاشة قد سرت فى بدنى.
- ماذا سنفعل يا سمية ؟!!
- سنزوره
- سنزوره
- عبد الناصر قتل سيد قطب والسادات قتل عزت فهمى .

تراجعت للـــوراء .

- فريدة المرص تطلب الطلاق ؟!
- معذورة !

منـذ أن خرجـت مـن بـاب المستـشفى بيـدين فـارغتين .. انقلبـت حياتهـا كانـت ثـائرى هائجـة طـوال اليـوم .... هـى تعـذب نفسها كثيرا ، تعاقب جسدها الذى فرط فى الجنين.. حين اخبرها الطبيب انها فقدت الجنين بسبب تسمم الحمل ... كاد الأمر برغم بشاعته أن يمر بسلام ، إلا أن الطبيب بعد أن تنحنح وصمت طـويلا عـاد إلى حديثـه فـى هـدوء ، كـان الأمـر يحتـاج إلى موازنـة بـين حياتـك وبقـاء الـرحم ، كـان لابـد مـن إزالـة الـرحم ..كنـا مجـبرين على .. ذلك استسلمت وكأنها كانت تتوقع عـدم نجاحهـا.. لكنهـا لم تكن تتصور أن تكـون النهايـة بهـذه البـشاعة، وبتلـك القـسوة ،حيـث فقدت كل شيء ،

فريـدة تحولـت فـى سـاعات النهـار إلى وحـش يـدهس كـل شيء فى طريقـه ، لم تـترك فـى الـشقة شيئا إلا حطمتـه .. فـى الليـل تتحول إلى قطة يتواصل انينها حتى الصباح .

قالـت لى أنهـا كانـت تحلـم بهـذا الولـد .. الـذي سـيعطى لحياتها معنى وقيمة، قالت انها تدرك أن حياتها السابقة لم يكـن لهـا قيمة عاشتها لنفسها .. ولتحقيق وغباتها حين تزوجت بالرجل العجـوز الثري احتملت معه عمرا ليس بالقصير، وهـى تجلس تحـت قديمـه وهـو يعاملـها كخادمـه وليـست زوجـة .. حـين مـات العجـوز الثـري

خرجت المرأة الشرسة من جلوها ، تمردت واعطت لنفسها كل الحقوق ..

كانت تجلس بجوارى وانا اتابع زيارة السادات للقدس .. كنت قلقا من هذه الزيارة.. فاجأتنى فريدة بتعليقها.

– عبد الناصر سبقه وأكل الشيكولاتة والبرتقال من يد اليهودى إيجال باديين أثناء حصاره فى الفالوجا .

كانت حروفها متكسرة شائهة، لم أعهدها تتحدث فى السياسة بكل هذه الثقة

– العجوز الثري كان يحب السياسة ، وكان يكلمنى كأنى طفلة بلهاء .. لا تتعجب

لم تعد الحياة فى كنف فريدة ممكنة ، أردكت أنها أنهارت .. فاتحت سمية فى أمر طلاقها .. وقلت إنها تضغط على من أجل الطلاق أما أنا فقد إدركت أن نهايتي قد قربت .. لم يعد لى شيء .. فقدت الولد .. وفقدت عزت فهمى .. هو عام الحزن إذن .. حتى أبهيت الحجر لم يعد لي شوق للذهاب إليها .

نظرت بإمعان إلى لوحة الإسبانى فرانسسكو جويا " أحلام العقل " التى وضعتها مديحة فى واجهة الصالة .. كانت تصورنى رجل منهك القوى .. جلس على كرسيه إلى جوار منضدة .. مادا

ساقيه على الأرض ملتفة منهما ساق على آخري ، والرأس مستورا بالزراعين .. منكب على سطح المنضدة، وحول الجسد المهدود .. هومت كائنات غريبة ، مخيفة ، منها زوات الجناح كأنها الخفافيش ، ركبت عليها رؤوس البوم .. ومنها الرابض على الأرض ربضة الفهد المفترس يتحفز لفريسته.. لا أعرف لماذا أحسست أن فرانسسكوجويا كان يقصدنى ، كان يشير إلى هذا الرجل المنهزم .. هذا الرجل الذى استسلم لقدره ولمصيره .. لم ينجح فى تحقيق شيء على الإطلاق .. لم يعد يصلح لشيء .. خسر مديحة وخسر الولد وخسر عزت فهمى .. ليتنى استطع أن أخرج من هذا الكابوس المسمى الجسد .. أن أمضي فاردا زراعي فى الهواء .. اتنفس هناك فى السماء العالية بعيدا عن رطوبة الأرض وسقيعها .

بالأمس رأيت جدى على البحار.. جائني مبتسما .. كعادته، شكوت إليه ما حدث لى .. امسك بلحيته البيضاء وعبث بها ، وكان يستمع لى ويبتسم ابتسامة طائر عجوز .. الأمر لا يحتمل يا جدى هذه الابتسامة ، أنا أنهار .. لم يعد لى وقت .. أنا اقترب منك.. ربما بقى لى عام أو أقل فى هذه الدنيا .. هل تسمعنى يا جدى ؟! ربما لأنك فى عالم آخر لا تشعر بما أنا فيه.. لكن لماذا لا تساعدنى .. الراوى يتحدث كل عام عن كرامات هى لك .. العام الماضي قال أن غمامة مشت تظلك من الشمس المحرقة .. قال

أنك وأنت هناك ساعدت المحتاجين.. كان يبدو كمن لا يعبا بحديثي ، كنت احثه أن يفعل شيئا .. لكنه هم وانصرف .. وضع فى يدى شيئا لا أعرفه .. ما هذا الشيء يا جدى؟! هل هى عطية ؟! هل هو شيء ثمين ؟! هل احتفظ به ؟! أنا لا أفهم إشاراتك ، أنت تكلمنى بلغة لا أفهمها .

حين أسرعت فى اليوم التالى ولحقت بالأتوبيس لكى أذهب على إبهيت الحجر ، مضيت إلى قبر جدى حين وقفت أمامه انخرطت فى بكاء طويل .. حزن بحجم طائر العنقاء خرج من صدرى .. ملأ سور المقابر كلها ، سمعت زنجرة الأنعام والسباع الوحوشي والهوام والحشرات من حولى ، كان نشيجى طويلا .. وانينى يصل إلى السماء..

مضيت فى المساء بخطوات متعبة مجهدة إلى شارع البحر الأعظم .. حيث نادي الصحفيين كان المتسكعون قد رحلوا من الشوارع مضيت حيث قابلت عزت فهمى أول مرة، ربما أجده فى انتظارى بابتسامة رائعة ! ويقول :

- لقد ضحكت على الحكومة.. لم أمت .. عدت من جديد إليهم .. لن يصدقوا.. لكن أنا ماهر فى ذلك ، وقد فعلتها كثيرا..

لم تكن الطاولة شاغرة كما كنت اظنها، كانت سمية تجلس .. ما الذى أتى بك يا سمية فى هذا الصباح الباكر؟! هل مازلت مثلى تنتظرين عزت فهمى ؟! تنتظرين القادم .. تضعين عينيك على باب النادى .. فربما يأتى عزت .. وإذا أتى يجب أن تكون عينياك هما أول شيء يراهما هنا .. مثلى تنتظرين.. حين رأتنى أندهشت ملامحها ، فأمسكت برأس تمثال الحرية تعبث به جلست قبالتها وأجهتها .

- هل تتزوجينني يا سمية ؟!!

لا أعرف ما الذي ساق هذه الكلمات على لسانى .. كيف اجرؤ أن أقول ذلك؟! هممت أن انصرف .. أن اعتذر له ، لكن لم أجد كلمات مناسبة، كنت أود أن أقول لها أننى أصبحت مجنونا، لا بل كنت أود أن أقول لها أننى أصبحت عاقا ، اتنقر لأعز أصدقائي ، ربما تجمدت كل الكلمات على شفتى ، لكنك حتما ستقرأيتها ، وستعرفين ما أود أن أقوله ، ربما لم أفلح أن أصبح شاعرا.. أن أكتب ديوانا من الشعر كما قلت لعزت .. لكننى حين قررت ذلك.. لم أجد ما أقوله .. لم أجد فى قلبى شعرا، كما كنت اعتقد وأحلم .. كان بداخلى شيء أخر .. لم يكن شعرا على الأطلاق .. ربما كان كائنا مثل الخرافة ، ربما كانت حواديت أمي ، أنا أصبحت مثل عربة لا أكتب الشعر ولا أفقه فى السياسة ، أصبحت

عربة بلهاء تسير حيث يريدها الأخرون أن تسير لا كما تريد.. ربما تظنين أننى أتحدث كفيلسوف عجوز.. لكنها ليست كذلك .. أنها أفكار متراكمة تسقط مثل سور الحديقة بلا سبب .. ربما الولد أو الموت ... ربما مديحة .. لم يعد هناك شيء .. إبهيت الحجر .. حتى أبهيت الحجر .. حتى أنت يا سمية .. حتى عزت فهمى ...

الإصـدارات

١- " آخر سلالة عائلة البحار " رواية صدرت عن دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة عام ٢٠٠٥

٢- "حارس السور " رواية صدرت عن سلسلة النشر الإقليمـــى بهيئة قصور الثقافة ٢٠٠٦

٣- " الأقدس " رواية صدرت عن دار أرابيسك للطباعة والنشر والترجمة ٢٠١١

٤- " كما يليق بحفيد " رواية صدرت عن سلسلة أصوات هيئـــة قصور الثقافة ٢٠١٢

٥- "سماء الحضرة " رواية عن سلسلة النشر الإقليمى بهيئة قصور الثقافة ٢٠١٤

٦- " مغامرات شادى في دنيا الحواديت " قصة للطفل الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٣

٧- حكاية الغراب والحمامة " قصة للطفل عن سلسلة كتاب قطر الندى ٢٠٠٣

٨- " حلم النملة دودى " قصة للطفل الهيئة العامـــة للكتـــاب ٢٠٠٩

٩- " ملك الحروف " قصة للطفل سلسلة كتاب قطر الندى ٢٠١١

١٠- " لك العشق والنيل لي " شعر عن دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع الكويت ١٩٩٦

١١- جسد بارد بلا تفاصيل " شعر سلسلة ابداعات قصور الثقافة ٢٠٠١

١٢- " البرواز " مونودراما مسرحية، صدرت ضمن كتاب " عشر مسرحيات" عن للنصوص الفائزة بجائزة مونودراما الفجيرة ط أولى ٢٠١٠

١٣- " عصفور وحرف ووطن " ديوان شعر للأطفال صدر عن دائرة الثقافة بالشارقة عام ٢٠٠٨

١٤- " سلسبيل " مسرحية للأطفال صدرت عن الهيئة العربية للمسرح بالإمارات ٢٠١١

١٥- "الوزير عطعوط " صدر عن سلسلة كتب الهلال للأولاد والبنات ٢٠١٣ مؤسسة دار الهلال

الجوائز

١- جائزة الشارقة في الرواية عن رواية "آخر سلالة عائلة البحار " ٢٠٠٤

٢- جائزة مجلة الصدى في الرواية عن رواية " حارس السور "

٣- جائزة مجلة الثقافة الجديدة وزارة الثقافة عن روايـــة " مثـــل قطعة كريستال " ٢٠٠٩

٤- جائزة اتحاد كتاب مصر عن رواية " الأقدس " عام ٢٠١٢

٥- جائزة نادى القصة في الرواية عام ٢٠٠٣(آخر سلالة عائلة البحار)

٦- جائزة نادى القصة في الرواية عام ٢٠٠٥عن رواية "عذابات رجل المنفي"

٧- جائزة " النيل " ـــ سوزان مبارك سابقا ـــ لأدب الطفل عام ١٩٩٨ المركز الأول

٨- جائزة " الهيئة العربية للمسرح بدولة الإمارات العربية عـــن مسرحية " سلسبيل " للأطفال عام ٢٠٠٩

٩- جائزة الشارقة في أدب الطفل ٢٠٠٧عن كتاب " عـــصفور وحرف ووطن "

١٠-جائزة دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع بالكويت عام ١٩٩٦ عن " لك العشق والنيل لي "